
شـــــريـــــعـــة
خـــــلف القـــــضبان
رواية
زياد غزال فريحات

بسم الله الرحمن الرحيم

1

بدأت ذاكرتي بإحساسي بقطرات الماء تلامس وجهي ، استمرّ سالم برشّ الماء على وجهي، وإعطائي رشفات يسيرة من الماء، وبعد معاناة شديدة حُمّلتُ على ظهر الحمار ، وسار بي سالم مع قطيع الأغنام إلى بيته في أقصى قرية نائية جنوب الأردن، كنت حينها في السّادسة والأربعين من عمري ، وما أن وصلنا حتّى استقبلته أمّه بسيل من الشّتائم لمجيئه مبكّراً ولكنّه قاطعها :

*- لقد أتيت مبكّراً بسبب هذا الرّجل ، رأيته يتدحرج من أعلى الجبل .

ولمّا أحسّ بالقلق على وجه أمّه حاول تبديد قلقها :

*- يمكث عندنا اليوم، وغداً يذهب الى أهله ...لا داعي للقلق.

و بقيت نائماً حتّى وقت العشاء تقريباً ، ساعدني سالم على الذّهاب الى الحمّام. سألني ونحن نتاول طعام العشاء عن اسمي وعن مكان سكني ، حدّقتُ في وجهه ثمّ تأمّلت كلّ أرجاء البيت و أثاثه ثمّ حدّقت بأمّ سالم وهي تصنع اللّبن الرّايب ، شعَرَتْ بنظراتي إليها ، فتراجعَتْ خائفة، غير قادرة على تفسير تلك النّظرات، لابدّ أنّ الرّيبة تسرّبت إلى قلبها ، شعر سالم بمقدار القلق والخوف الذي تملّك أمّه، فداعبني مسرعا :

*– لقد أخفتنا بصمتك ونظراتك ، قل لنا ما اسمك وأين تسكن لنساعدك.

أجبته برعب مازال موشوماً في ذاكرتي :

*– لا أدري ، أنا لاأتذكر شيئا....لا أتذكر أيّ شيء .

صعق سالم و أمّه من جوابي الّذي زاد هواجسها...عندها لاطفني سالم :

*– لا عليك ...غداً سوف تتذكّر كلّ شيء إن شاء الله ...مازالت ضربتك ساخنة ...سأعلّمُك الوضوء والصّلاة لكي نصلّي صلاة العشاء، لا تطلب منّي أن أعلّمك شيئا آخر ، فليس عندي شيء أعلّمه لك إلاّ رعي الأغنام ، ولا أنصحك أن تتعلمه .

صليت الصّلاة الأولى الّتي احتفلتْ بها ذاكرتي إلى حدّ نسيان الخوف من المجهول ولو لفترة قصيرة ، فمازالت لذّة طعم الرّكوع والسّجود والدّعاء في ذلك اليوم حاضرة إلى الآن في زوايا حواسّي ، و في غمرة لذّة الصّلاة الأولى وضعت رأسي على الوسادة وغرقت في نوم عميق ، و أثناء نومي ، نادت الأمّ ابنها وأدخلته إلى غرفتها قالت الأمّ لسالم :

*– هذا الضّيف يخيفني ،إنّ نظراته نظرات مجرم ، و نحن نسكن في طرف القرية، وأخوك خالد يأتي من جامعة اليرموك مرّة كلّ أسبوعين .

حاول سالم تهدئة مخاوفها، لكن دون جدوى ، هذا ما أخبرني به سالم فيما بعد .

بعد صلاة الفجر مباشرة سألني سالم إن كنت تذكّرت شيئا، فأجبته بالنّفي القاطع عندها لم يكن أمامه خيار إلاّ أن أرافقه في رعي الأغنام . انطلقنا حتّى وصلنا إلى المرعى، وبعد الإفطار أخرج سالم مصحفاً صغيراً من جيبه وعلى حواشي المصحف أسباب النّزول، و أخذ يقرأ بصمت، إنّه يختم القرآن الكريم مرتين كلّ شهر، وبعد أن أنهى القراءة اقترب منّي وقال:

*- ما رأيك أن تقرأ شيئا من القرآن ...إنّ فيه شفاء للمؤمنين فهو كلام الله ، ربّما إذا قرأت فيه أن يشفيك الله ، وأن تتذكّر كلّ شيء ...خذ ... خذ .

أخذت المصحف ومشاعر الضّياع تغمرني، أخذته محاولا أن أعصر عقلي لكي أرجع إلى الماضي ، لكن دون جدوى ،أيّ عذاب شديد هذا ... إنّه عذاب القطع عن الماضي، كما تقطع الشّجرة من ساقها وتقذف بعيدة بلا جذور، كطفل صغير في صحراء غريبة شاسعة، القطع عن الماضي يمتزج فيه الاصطلاء بنار التّيه والضّياع والإحساس بالعتمة وفقدان البوصلة وتلاشي الشّخصيّة وفقدان الهويّة ، إنّه عذاب وحسرة ، و آلام متواصلة ، ونفق مظلم لا يُرى فيه

بصيص من النّور؛ وبالتّالي سيرٌ في عتمة النّفق، و لكن إلى أين يا ترى ؟! من عتمة إلى عتمة .

فتحت المصحف وأنا أشك في قدرتي على القراءة، و ما أن وقع قلبي على الآيات حتّى أخذتني لقراءتها بسهولة و يسر ، و دخلت قلبي بسهولة ويسر أيضاً، لا يزاحمها في قلبي إلا مشاعر الضّياع والحيرة والقلق والاضطراب ، و أخذَتِ الآياتُ تجدُ لها متّسعاً في أعماق القلب الممزّق، منذ تلك اللّحظة لم أفارق قراءة القرآن بنهم التّائه الّذي وجد الطّريق، فقد أصبح لي ماض أتذكّره بحدّة ؛ هو أيّامي مع كتاب الله ، و في أقلّ من أسبوع أكملت قراءته .

وفي ليلة مُكوثي السّابعة في القرية، جاء خالد الأخ الأكبر لسالم قادماً من مدينة إربد من جامعته اليرموك، حيث يحضّر لرسالة الماجستير في الشّريعة ، سلّم علينا وحاول إخفاء استغرابه من وجودي جالساً متهيّئاً للنّوم ، استأذن بلباقة للسّلام على أمّه، و ما أن دخل إلى غرفتها حتّى عاجلته برواية قصّتي مظهرةً ريبتها وخوفها، لقد روى لي خالد فيما بعد ما جرى بينه وبين أمّه بالتّفصيل، وحتّى تؤكّد الأمّ لابنها مخاوفها أخرجت من خزانتها مسدساً و قلادة غليظة من الذّهب، و جدهما سالم معي ، عندها شارك خالد أمّه شكوكها ومخاوفها، سألني خالد في تلك اللّيلة:

* – كيف تنسى كلّ شيء و تتذكر القراءة؟

أجبته وأنا لا أملك ما أبدّد به استغرابه.

*- أنا في الحقيقة لم أنس كلّ شيء، فأنا أعرف الأشياء وأتذكّرها ، فأعرف أنّ هذا ماء وهذا خبز وغيرها، ما حدث هو أنّني انقطعت عن الماضي المتعلّق بشخصيّتي ، هذا ما أحسّ به .

سألني عن أكثر ما أثّر فيَ وأنا أقرأ القرآن. أجبته بمشاعر فيّاضة :

*- أكثر ما أثّر في داخلي هي الآيات الّتي تخبر الرّسول صلّى الله عليه و سلّم عن الماضي ؛ عن نوح وإبرهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى، و ما جرى معهم من أحداث، و أنّ دعوة رسولنا مُحمَّد صلّى الله عليه و سلّم إلى عبادة الله وحده لا شريك له لها، ماضٍ ممتدّ عبر مراحل التّاريخ دون انقطاع .

ويهزّني إلى حدّ الزّلزال تذكير الله عزّ وجلّ للمؤمنين بفضله عليهم وتحذيره إيّاهم من نسيانه أو نسيان آياته وأحكامه وفضله ونعمائه.

عندما قرأت قوله سبحانه وتعالى :{ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} حُفِرتْ على الفور في صدري، و ما زال يلتصق في قلبي قوله تعالى {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم}؛ الله عزّ و جلّ يخبرهم أنّ عاقبة ذلك إنساؤهم أنفسَهم ، ونسيان النّفس هو الذّهاب مع الرياح إلى المجهول، هو الاستسلام الى الأمواج المتلاطمة، هو

السّباحة في وسط بحر هبّت عليه عاصفة انعدم معها القدرة على تحديد شواطئه، نسيان النّفس هو السّير في صحراء حارقة بلا هدى ولا ظلال، النّسيان بالنّسبة لي هو عذاب أتذوّقه كلّ يوم و يشتدّ العذاب عندما يكون النّسيان هو الاسم والنّسب والأهل والأصحاب .

عندما سمع خالد منّي هذا الكلام أحسّ بصدقي، و ظهر عليه التّعاطف معي فيما بعد، الأهمّ من ذلك هو قراره بالعودة إلى الجامعة وهو مطمئنّ على أمّه وأخيه، و في صباح يوم السّفر إلى الجامعة أحضر خالد المسدّس والقلادة الذّهبيّة وسألني عنهما .

أجبته بأنّي لا أذكر شيئا عنهما، وهذا الجواب يعرفه مسبقاً و لكنّه فعل ذلك بناء على رغبة أمّه ، و من فوره تدخّل سالم بعد أجابتي ونظر اليّ وقال:

*- لقد وجدّت المسدس في جيب سترتك والسّلسلة الذّهبيّة حول عنقك، و لأن لبس الذّهب للرّجال حرام نزعتها عنك .

في تلك اللّحظة تأكّد خالد أن المسدّس والذّهب غير مسروقين، كما أنّه تأكّد أيضاً أنّ الرّجل الّذي يقف أمامه لم يكن في ماضيه ملتزماً بدينه ، أمّا أنا فلم ألتفت إلى أنّ السّلسلة الذّهبيّة حول عنقي تدلّ على عدم التزامي بديني في الماضي، وهذا من رحمة الله عليّ، و في لحظة و داعنا قال لي خالد:

*- يوجد عندي بعض كتب التّفسير في البيت يمكنك مطالعتها إن أردت، و كن مطمئنّاً سأجد لك أهلك خلال أيّام، نحن في بلد صغير من الصّعب أن يختفي فيه شيء لمدّة طويلة... السّلام عليكم.

2

لقد أخبرني خالد أنّه عندما وصل إلى الجامعة في أربد، اتجه على الفور إلى شارع الجامعة الّذي يكثر فيه مقاهي الإنترنت، و بدأ البحث في الصّحف اليوميّة، مركّزاً على الأعداد القريبة من يوم اصابتي، ولم يجد عناءً في الوصول إلى خبر اختفائي، لقد رأى صورتي و قرأ اسمي وماذا أعمل، و أخذ يقرأ كلّ ما كُتِبَ عنّي، ثمّ بدأ يتصفّح ما كنت أكتبه من مقالات و كتب، و بعد ساعات من محاولة معرفة من أكون حدّثَ نفسه مبتسماً :

*– سبحانَ الله مغيّر الأحوال من حال إلى حال، سبحان الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر.

و في نهاية الأسبوع، عاد إلينا خالد على غيرعادته؛ فهو يغيب أسبوعين في العادة، سألته بلهفة: هل عرفتَ شيئا عنّي؟ فأجاب بأنّه لم يتوصّل إلى شيء، و طمأنني بأنّ الأمر لن يطول كثيراً وقال :

*– نحن في بلد لا تختفي فيه الأشياء مدّة طويلة حتّى الأسرار.

أخفى عنّي خالد حقيقة أمري، و أخبر أمّه من أكون لكي يذهب خوفها وتطمئنّ لذهابي معه إلى إربد ليوصلني إلى أهلي، و قد طلب منها ألاّ تخبر سالم بالموضوع إلى حين مغادرتي معه، لأنّه يريد أن

يخبرني عن أهلي بشكل تدريجيّ، و قبل مغادرتنا أحضر خالد المسدّس والسّلسلة الذّهبيّة ونظر إليّ وقال :

*- خذ هذه أمانتك .

- هذا المسدس هديّة لسالم، فلا حاجة لي به، و هذه السّلسلة بعها ومن ثمنها ننفق حتّى نجد أهلي إن شاء الله .

وصلنا إلى سكن خالد وهو عبارة عن غرفة وحمام ومطبخ صغير، وهذا السّكن جزء من عمارة كبيرة يسكنها الطّلاب والعاملون من خارج مدينة إربد، وضع خالد الطّعام الذي أعدّته له أمّه، و كلّه من منتجات الألبان في ثلاّجة صغيرة، وذهب إلى الجامعة، بينما مكثت في الغرفة أسأل نفسي من أكون، و من هم أهلي، و مع شعوري باقتراب لقائي معهم، و في السّاعة التّاسعة مساءً عاد خالد برفقة فنّيّ الصّحون اللاّقطة، و قد أحضر لي سريراً وفراشا و ما يلزمني للنّوم، كما أحضر تلفازا و رسيفرَ و صحنا لاقطا صغيرا وثلاث وجبات من الطّعام، بالإضافة إلى هاتف خلويّ لي، و قال وهو ممتلىء بالسّرور :

*- لقد بعت السّلسلة بسبعمئة دينار، لقد اشتريت كلّ هذه الأشياء على حسابك، أنت تحتاج إلى تلفاز لتشاهد الأخبار ، فألاخبار تعيد بناء الذّاكرة .

و بعد الانتهاء من تجهيز التّلفاز لاستقبال البثّ الفضائيّ، والانتهاء من طعام العشاء، و مغادرة الفنّي، جلست أنا وخالد نستمع إلى نشرة الأخبار وهي أوّل نشرة أخبار تلتصق بذاكرتي، و فيها ظهر بوضوح احتلال اليهود للقدس، و احتلال أمريكا للعراق وأفغانستان، لقد أعطتني هذه النّشرة صورة ضعف هذه الأمّة، و بَقِيَتْ هذه الصّورة أمامي مؤثّرة في حياتي لأمد طويل.

ومضت الأيّام ممضيًا وقتي بقراءة القرآن و الكتب الّتي يستعيرها لي خالد من مكتبة الجامعة، وفي المساء أتابع الأخبار، و لا أخرج من الغرفة إلاّ إلى الصّلاة في المسجد، و في كلّ يوم أسأل خالدا عن نفسي وعن أهلي، و في كلّ مرّة يتظاهر بأنّه لم يصل إلى ذلك بعدُ، وبعد قرابة شهر من وصولي إلى إربد أخذ خالد يدربني على استعمال الحاسوب والإنترنت، و أتقنت ذلك في أسبوعين ، ومضت أيّامي تسير بين الصّلاة والقراءة ومتابعة الأخبار والجلوس في مقاهي الإنترنت، وعندما تأكّد خالد أنّ الإسلام تجذّر داخلي التزاماً وثقافة أخبرني من أكون، و من هم أهلي، و عندما طلبت منه الذّهاب إليهم على الفور، قال :

*– قبل أن نذهب إليهم أريد منك أن ترى صورهم حتّى تتعرّف عليهم، فأنت لك موقع على الإنترنت باسمك عليه صورك أنت والعائلة.

هرعت إلى مقهى الإنترنت وأنا أطير من الفرح فآلام القطع عن الماضي في طريقها إلى التّلاشي، و السّلسلة المقطوعة من حياتي ترتبط من جديد، ها أنا أتذوّق طعم الفرح وأشتمّ رائحة التّاريخ من جديد، أسير بسرعة وخالد يلهث بجانبي، فاليوم عرفت نفسي، أنا الدّكتور طارق مُحمَّد حسن، أعمل مديراً لمركز الفكر المعاصر للدّراسات ،متزوج ولي ابنتان تدرسان في الجامعة، هذا ما أخبرني به خالد، و لم يخبرني أكثر من ذلك، وصلنا المقهى ودخلت إلى موقعي على الإنترنت، و قرأت سيرتي الذّاتية ثمّ وقعت عيني على صورة أظهر فيها معك أنت يا ياسمين وأمّك، و نحن ندقّ كؤوس الخمر في حفل تخرّجك من الثّانوية، و صورة لأختك ناهد وهي بملابس السّباحة، أصابتني صدمة الدّهشة، و شعرت بالاغتراب ، وأصبح الماضي الّذي كنت أشتاق إليه عبئاً أريد التّخلّص منه، وخالد ينظر إليّ بصمت حزين ثمّ غادر لأنّه أدرك أنّي بأمسّ الحاجة لأن أكون وحدي، واصلت قراءة مقالاتي حتّى أذان الفجر، خرجت من المقهى و أنا الآن رجل غنيّ أمتلك فيلا و مجمّعاً تجاريّاً، و قد وجدت أهلي، لكنّي وجدتهم غرباء عنّي وأنا عنهم غريب، وجدت ذاتي ، لكنّي نافر منها إلى حدّ الهروب، أنا الدكتور طارق من دعاة العلمانيّة أنا من أشدّ المهاجمين لفكرة تحكيم الشّريعة ،أردّد في مقالاتي دائماً لا يوجد في التّاريخ دولة إسلاميّة، الحكم بالإسلام فكرة

خياليّة، الإسلام لا مكان له في السّياسة والدّولة ، صلّيت الفجر وسرت إلى الغرفة تملؤني رغبة الهروب من أهلي ومن ذاتي القديمة أحدّثُ نفسي: "أنا مسلم معتزّ بدينه، أنا لست علمانيّاً ، هل هناك شخص آخر في داخلي؟! إن كنت موجوداً فأرجوك أن تغادرني ، لا أريدك معي، أنا وأنت نقيضان، لا يمكن أن نعيش في جسد واحد، فأنت لست نقيضي فقط ، بل أنت غريمي أيضاً، ضربت على صدري ضربات متصاعدة بقوّة وقلت لطارق القديم أنت لست في داخلي أنت انتهيت لقد فقدتك مع الماضي، أنت متّ وأنت تتدحرج من أعلى الجبل والأموات لا يعودون إلى الحياة"

صلّيت الفجر و بعد الصّلاة التقيت بخالد فقال لي:

*- متى نذهب إلى أهلك ... لكن أرجوك لا تقل لي الآن ، دعنا ننام قليلاً، أم أنك لا تستطيع النّوم من الفرح والشّوق .

- لا أدري ماذا أفعل، إنّني لا أستطيع الذّهاب إلى أهلي الآن، لا أدري كيف سأتعامل معهم أو كيف سأنام وآكل وأعيش معهم؟! أنا أعيش الآن كابوسا، يا ليته كابوس، إنه حقيقة تشعرني بالإحراج والغربة عن الذّات ، عندما أنهيت قراءة عشرات المقالات الّتي كتبتها بقلمي قلت :

- أيّ جنون هذا؟ أيّ جحود أسود؟ أيّ قلب قاسٍ هذا الذي كان بين أضلعي؟ إله يخلق الأرض والسّماء والحياة والبشر و ينــزّل نظاماً

لتسير عليه الحياة، فتكون النّتيجة أن يُقذف نظام ربّ العالمين خلف القضبان، لا أدري ماذا أفعل ... أتنقّل من حيرة إلى حيرة ومن خوف الى خوف ومن قلق إلى قلق ومن ألم إلى ألم، لا أدي ماذا أفعل؟!

واساني خالد بقوله:

-لا تحزن إنّ الله سيكون معك، لأنّك تريد أن تكون معه، وأنا واثق أنّ الله سيرشدك إلى الطّريق .

قضيت أسبوعاً أفكّر ماذا أفعل، راودتني أفكار كثيرة منها أن أعتزل عائلتي و أبدأ حياة جديدة بعيدة عنهم وبعيدة عن الحياة المرتدية رداءً متناقضاً مع إيماني... ومنها أن أجبرهم على الالتزام بأحكام الإسلام بالقوّة ... لكن كان قراري هو العيش معهم ، محاولاً الحفاظ على الأسرة قدر الإمكان والحفاظ على الالتزام الدينيّ في البيت قدر المستطاع ، لذلك طلبت من خالد الاتصال بأهلي، ليخبرهم بكلّ ما حصل معي، و أن يركّز على التزامي بديني ، اتّصل خالد و تكلّم مع زوجتي أمّك يا ياسمين، و أوضح لها كلّ شيء عنّي... ألحّت عليه بشدّة أن تكلّمني،فكلّمت امرأة غريبة وبعيدة عن مشاعري وذاكرتي، وبعد دقائق قليلة من سماع صوتها الفائض بالشّوق والحنان والفرحة أصبحت هذه المرأة معروفة وقريبة منّي لدرجة

أنّي استعجلت لقاء الأهل شوقاً إليها، وقادني الشّوق إلى أهلي ومع وجود نفورٍ يرتفع وينخفض حسب الخواطر الّتي تزور رأسي .

وصلت إلى غرب عمان ثم دخلت الفيلا الّتي نحن فيها الآن، وكان اللّقاء حارّاً مع الأسرة أوجد دفئاً دفع بالنّفور بعيدا بعيداً ، انجذبت سريعاً إلى خالك حسّان؛ لأنّه كان شديد السّرور لتَغيُّري بعد أن كنّا متخاصمين بسبب مهاجمتي الديّنَ في ما مضى مع أنّه ليس رجلاً متديّناً بصورة عميقة .

وبعد أيّام معدودة من عودتي طلبت من أمّك ومنك ومن ناهد ارتداء الحجاب، وعلى الفور أحضرت أمّك شالاً ولبسته وقالت :

* – أنا منذ هذه اللّحظة سأرتدي الحجاب، كنت دائماً أتمنّى ذلك، لكنّ بيئتنا الّتي نعيش، لا تعينُ على الحجاب ، كما أنّك كنت مانعي حتّى من الحديث عنه ، فارتدائي الحجاب اليوم عن رضًى وحبّ وقناعة .

نظرتُ إليكما أنتِ و أختكِ... فاحتميتِ بالصّمت ... أمّا ناهد فعاجلتني بردّها :

*– الحجاب ...! لا أستطيع لبسه... كلّ من حولي لايرتديين الحجاب ، و أنا أرفض الشّذوذ عنهنّ .

لقد أغضبني ردّ ناهد ... دخلت غرفتي وأنا لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل، و ما لبثت أمّك حتّى تبعتني والفرحة و السّعادة تظهر

على وجهها لشعورها المتنامي بالتقارب بيني و بينها ، فهذا القرب لم تَشْعُرْه في حياتها قبلُ، إذ كان ما يحول بيني وبينها علاقاتي الكثيرة بنساء كانت تعرفهنّ و أخر سمعت عنهنّ ، علاقات وصلت في بعضها حدّ الخيانة. نظرتُ إليها وهي تحاول عبثا إخفاء سعادتها لشدّة اندفاع الابتسامات و تزاحمها على ثغرها قالت :

*–قل لي كيف أبدو بالحجاب؟ هذا الشّال تلبسه كبيرات السّن .

– ولماذا اشتريتِه إذن؟

*– أنا لم أشتره ، لقد تركَتْهُ والدتُك عندنا .

– أمّي ... أين هي؟ لم أرها ... أين هي الآن ؟ أين ذهبت و تركت هذا الشال ؟

*– ... إنها في دار المسنّين ..

– ولماذا دار المسنّين ؟!

قالت أمّك بشيء من الارتباك .

*– إنّها قصّة طويلة .

– أريد أن أسمعها .

ازداد الارتباك على وجه أمّك .

*– ولكن ...

– ولكن ماذا ؟

*– أنتَ الآن لستَ الإنسان الذي كنتَه في السّابق ، ربّما ستتضايق إذا ما عرفت قصّة والدتك .

– بل أريدك أن تخبريني كلّ تفاصيلها، و لا تنقصي منها شيئا .

أخذت أمّك تقصّ عليّ كيف حجرتُ على أمّي وألقيت بها في دار المسنّين بعد مرور أقلّ من سنة على وفاة أبي.

ضربت على فخذي بشدّة و تصاعدت الدّماء إلى عروق عنقي فقلت بغضب :

*– لقد كنت ...سيئاً ... جحوداً ... حقيراً ... دينيَ أهاجم سيادته! وزوجتي أخونها! وأمّي وأنا ابنها الوحيد أعقّها عقوقاً قاتلاً ....كيف لي أن أراها؟ كيف لي أن أطلب عفوها و رضاها؟ .

:– يمكنك أن تراها الآن ، إنّ الدّار تابعة للقطاع الخاصّ .

وعلى الفور ذهبتُ إلى أمّي ، في ليلة البدر فيها مكتمل ، نوره على أشدّ ما يكون البدر، حين يعطي أقصى ما يستطيع من الإضاءة وأنا أريد أن أعطي أقصى ما أستطيع من البرّ لأمّي بعد ثلاث سنوات من عتمة الأمل، وشراسة نهش وعضّ العزّة والكرامة ، و من آلام كسر الخاطر والقلب وحتّى الظّهر... وصلتُ دار المسنّين وطلبت رؤيتها، جاءت على كرسيّ متحرّك، عرفت فيما بعد أنّها تستطيع المشي عدّة خطوات، لكنّها لا تسمح لأحد أن يسندها لكي تحافظ على بقايا كرامتها وبقايا إرادتها ... عندما تراءت لي من بعيد عَرفتُ أنّها

أمّي، اقتربت شيئا فشيئا وما أن التقى رسول عينيها بعينيّ حتّى أَدرَكتْ بحدسها العملاق أنّي جئت طالباً الصّفح والعفو، وما أنِ اقتربتْ جثوتُ على ركبتيّ مقبّلا رأسها ويديها، قلت لها وعيناي تحضن عينيها :

*– من اليوم ستعيشين معي، سأفعل كلّ ما يرضيكِ، حتّى لو كان في رضاكِ اجتياح نفسي ومالي .

نهضتُ وأخذتُ أدفع الكرسي بلطف شديد و هي الّتي لا تسمح لأحد أن يدفع كرسيّها، لكنّها الآن تجلس هادئة مطمئنّة، لقد سكَنَتْ جراحها الفوّارة، و خَـبتْ نيران قهرها وغيظها، و شعرت أمْنَاً و قوّة ترفع رأسها شامخا بعد أن نكّستْه دّموعها الحارّة الغزيرة في جوف اللّيل وهي تقاسي وحيدة فجيعة جحود وعقوق الابن الوحيد و مأساة الحَجْر عليها ، و انهيار حصن أحلامها و ذكرياتها و تدميره بطردها من بيتها ... و عندما وصلنا إلى سيّارتي رفعتها عن الكرسي لأُجلِسها داخل السّيّارة، تسمّرت عيناها تلقاء السّماء مُحدّقة في البدر، في لحظاتِ بوحٍ غامض، علمتُ مكنونه فيما بعد ؛ ففي أوّل ليلة قضتها في دار المسنّين بعد طردها من بيتها كان القمر بدراً أيضاً، قد تتشابه اللّيالي و الأيّام لكنّ الأَشخاص يتغيّرون من حال إلى حال ... وصلنا البيت ... وصلت أمّي إلى بيتها الذي بنته قشّة قشّة، و بعد ترحيب البنتين بها ترحيباً حارّاً وساعات من

الحديث المتشعّب أرادتْ أمّي أن تذهب إلى غرفتها ، فأخبرتها أمّكِ أنّ غرفتَها صارت مستودعا ، وأنّها في هذه اللّيلة فقط ستنام في غرفة ياسمين إلى أن تجهّز لها غرفتها، و ياسمين ستنام في غرفة ناهد، أوصلت أمّي إلى غرفتك يا ياسمين واستلقت على السّرير... هاجمها الأرق رغم الفرحة والسّعادة فخرجت في جوف اللّيل على كرسيها المتحرك تبحث في بيتها عن أيّ شيء من أثرها، ففي كلّ قطعة أثاث قصّة، وفي كلّ أداة من أدوات المنـــزل ذكرى وحكاية، بحثت في كلّ الأثاث، البرادي ، التحف المعلّقة و الجاثمة في الزوايا فلم تجد شيئا، ثم دخلت إلى المطبخ لعلّها تجد أثراً من آثارها و لكن دون جدوى، مضت في كرسيّها المتحرك عائدة فوقعت عيناها على مفتاح العلب فأقبلت عليه و قبّلته وأعطاها قصته أيّام عزّها وحكايته حينما كانت سيّدة في بيتها و ذكريات ملمسه وهي قويّة ، هذا المفتاح قال لها رغم اختفاء كلّ الآثار أنّ بيتها موجود ولم يتغير فيه إلاّ القشور فقد رجعت إلى بيتها بكلّ ما فيه من حكايات وذكريات ، نامت أمّي من غير خوار كسر القلب والظّهر الّتي كانت تنهشها عبر ثلاث سنوات ، نامت مطمئنّة ، إنّ طعم الرّجوع إلى البيت الّذي تتذوقه أي امرأة في هذه الدنيا بعد حرمان قسريّ عدّة سنوات طعم لا يضاهيه شيء في مشاعر النّساء إلاّ أنّه عند أمّي أقوى بكثير لأنّها امرأة عاجزة ، و الإخراج القسريّ كان من الابن الوحيد.

بعد عدّة أيّام من عودة أمّي اقترحت عليها الخروج في نـــزهة فاختارت المدرّج الرّومانيّ والقلعة في وسط البلد عمّان وأخبرتها بحكايتي من يوم سقوطي عن الجبل إلى يوم لقائي معها، وأقسمت عليها أن تقصّ عليّ سيرتي معها، فاستجابت لطلبي...بدأت بيوم ولادتي و تابعت سرد الأحداث مرورا بيوم تخرّجي ثمّ زواجي حتّى وصلت إلى يوم وفاة أبي قبل أربع سنوات تقريبا، عندها تغيّرصوتُها تنهّدت ثمّ واصلت بصوت خافت حزين :

*- عندما توفّي أبوك أحسست بالانكسار ، وأحياناً بالضّياع ، وعدم الرّغبة في الحياة ... و كان ما يهوّن عليّ هو أنتَ ابني الوحيد ، لكنك كنت قاسياً إلى درجة أنّي كدت أفقد عقلي، فبعد وفاة أبيك بأشهر فقط أردتني أن أتنازل لك عن الفيلا الّتي نسكن فيها الآن فقد كتبها أبوك باسمي قبل وفاته بسنة تقريباً، ولكنّي رفضت أن أتنازل عن بيتي الذي هو وجودي بحدّ ذاته. تماديتَ و عميَ قلبك عمّن رعاك صغيرا و استقويت بالقانون، وما هي إلا أشهر حتّى قضتِ المحكمة بالحجر عليّ .... ياه ياطارق ما أقسى الحجر على إمرأة عاشت عمرها عزيزة كريمة ، لقد انقلبتُ بين ليلة وضحاها إلى أَمَة تقاسي آلام العبوديّة ، لكنّ أ تعلم أنّ هذه الآلام كانت صغيرة مقابل لحظة طردي من بيتي، فإن كنتُ شعرت لحظة الحجر عليّ بالعبوديّة فقد أحسست لحظة إخراجي من بيتي بالموت حرقاً، لن

أنسى النّظرة الحرّى الأخيرة الّتي عاشتني لقلب بيتي وأثاثه، النّظرة الّتي نزف القلب بقايا كرامته و كيانه على عزف صرير إغلاق الباب، ومضيت إلى دار المسنّين جثّة هامدة بلا روح يأكلها ببطء قهر اغتصاب العرش من الابن الوحيد ... فعرش المرأة هو بيتها، لا عزّة ولا كرامة ولا وجود لامرأة وهي مطرودة من بيتها .

لقد أحسست بدماء جروح كرامة أمّي الغائرة حتّى لكأنّي بي أنا المكلوم بحراب النّكران ، أراني مطرودا من بيتي، و رجعت مع أمّي نحو البيت و قصّة الحجر عليها، و اغتصاب عرشها تنهشني وتسيطر على خيالي، و في الطّريق أوقفت السّيّارة أمام أحد المحلاّت لشراء الماء والعصير، فتحت الثّلاجة الّتي خارج المحلّ، وخيالي ما يزال منشغلا بحكاية أمّي، و لّما وضعت الأغراض على الطّاولة رأيت تشكيلة من المكسّرات، طلبت مجموعة منها، رفعت رأسي فصُعقت ممّا رأيتُ، وجدتني في محلّ لبيع الخمور فأخذت أتأمّل المحلّ و الزّجاجات الّتي تجلس على الرّفوف موفورة الكرامة ، زجاجات كبيرة جدّاً تقف في صدر المحل بهيئة التّعالي والكبرياء، ثمّ وقع نظري على رخصة المحلّ الّتي حصل عليها التّاجر لبيع الخمور بموجب نصّ القانون، فقرأتها كلمة كلمة حتّى حفظتها، أخذت الأغراض وخرجت من المحلّ ببطء، وإذا بجانب المحلّ وعلى بعد أمتارٍ فقط ، إعلان لقرض ربويّ ، لقد صُمّم الإعلان بصورة

وكلمات ليكون جذّاباً ولافتا للنّظر يستطيع رؤيته حتّى المارّة من بعيد ليلاً و نهاراً، معلّق على الجهة اليسرى لمصرف يتكوّن من ستّ طوابق، كم هي جميلة عمارة هذا المصرف، يوحي لك بناؤه على الفور بالشّموخ والفخامة والكبرياء، فذهبت أتأمّل المكان بكلّ تفاصيله فرأيت على الجهة المقابلة ناديا ليليّا عليه صور لبعض الرّاقصات ، قلت في نفسي من المؤكّد أنّ المصرف والنّادي اللّيليّ قد حصلا على رخصة بموجب القانون أيضاً .

جلست في السّيّارة وإذا بأمّي قد أخذها النّوم ، فسرت بالسّيّارة ببطء كي لا أوقظها وخيالي أصبح يتنقل بين رخصة محلّ الخمور وزجاجات الخمر الكبيرة الّتي تقف في بيتها في كبرياء ، وبين إعلان القرض الربويّ ومنظر المصرف المكتسي شموخا وعظمة ومنظر النّادي اللّيليّ الّذي ينادي المارّة إلى بيته الصّاخب ، هذه المناظر لا تفارق خيالي، لقد أحسست أن هناك قصّة تشبه قصّة أمّي ولكنّها أعظم قساوة، قصّة فيها الحجْر والطّرد من البيت واغتصاب العرش، إنّها قصّة شريعة الله ، عندما سمعت قصّة أمّي لم أبك رغم إحساسي الحقيقيّ بمأساتها، أمّا عندما روت لي رخصةُ محلّ الخمور جزءا صغيراً من قصّة شريعة الله بكيت بدموع حارّة ، فأمّي انتهى الحجر عليها، و رجعت إلى بيتها، و كان انهاء معاناتها ميسورا، أمّا شريعة الله فما زال الحجر عليها سارياً بقساوة أقسى من

آلام نشر الرّأس نصفين، وما زالت مطاردة تعيش بلا مأوًى ، هذا الشّموخ والكبرياء للمصرف الرّبوي يحكي لي كيف نزلت شريعة الله عن عرشها و اغتُصِبَ بوحشية سلطانُها وطُردت من دارها وألقيت في غياهب السّجون، أمّي اليوم تنام مطمئنّة القلب مرتاحة البال، أمّا شريعة الله فإنّها تتـــزف في سجنها ... تتـــفتت عظامها.

لقد آلمني منظر محلّ بيع الخمورو لكن ما أوغل في طعني وجلدي هي رخصة بيع الخمور الصّادرة بموجب القانون ، هذه الرّخصة كانت كاشفة عن اغتصاب بشع لعرش الشّريعة المطهّرة ، لقد قرض لحمي مشهد الإعلان عن القرض الرّبويّ و لكن ما تمادى في نهش قلبي هو الكبرياء والشّموخ والتّعالي للمصرف الكاشف بوضوح مدى إهانة الشّريعة وتقزيمها، فإذا كانت أمّي شعرت لحظة الحجر عليها بالعبوديّة ، و أحسّت لحظة إخراجها من بيتها بالموت حرقاً، فما تقول شريعة الله الّتي سادت الأرض والبشر مئات السّنوات وهي شريعة خالق الأرض والبشر الرزّاق، المحيي، المميت، من بيده وحده الخير! لقد استطعت الإحساس بمأساة أمّي ، أمّا الإحساس بآلام شريعة الله فهو يفوق الوصف، و مشاعري لا تحتمل الإحساس إلا بقشور المأساة، شريعة يُحجَرُ عليها و تُطرد من بيتها، و يُغتصَب عرشها، هذه المشاهد تعرض متواصلة دون توقّف على شعوب تؤمن إيماناً راسخاً بشريعة الله .

3

حصل خالد على درجة الماجستير في الشّريعة، و طلبت منه العمل معي في مركز الفكر المعاصر للدّراسات وقلت له:

*- لقد كان هذا المركز بندقية تحارب فكرة تحكيم الشّريعة، وأريدك أن تساعدني ليكون هذا المركز يداً حانيةً على فكرة الحكم بالشّريعة.

و اتفقنا على البدء بالعمل... لكن من أين نبدأ للعمل لتحكيم الشّريعة، لقد حيّرنا هذا السّؤال، و لكن اتفــقنا أن ندرس المجتمع الذي نحن فيه دراسة تتعلق بالإجابة على هذا السّؤال، و استمرّت الدّراسة ستّة شهور متواصلة، بعدها توصّلنا إلى أن مفاتيح فهم المجتمع الأردنيّ الّتي تتعلق بإجابتنا على السّؤال المطروح هي العشيرة والانقسام بين سكّان البلد ، أمّا العشيرة فلها إيجابيّات من الصّعب حصرها ، سواء بالحفاظ على الهويّة الإسلاميّة أم بدورها الاجتماعي في مساعدة المحتاج ونصرة المظلوم ، أم بالأدوار الإيجابيّة التي مارستها العشائر العربيّة في الماضي والحاضر، و لعلّ أبرز سمات العشيرة الأردنيّة هو التّسامح ... التّسامح هذا الخلق العظيم الذي يحبّه الله تعالى ، إلاّ أنّ مطبخ القرار في الأردنّ عَمَد إلى التّلاعب في جينات العشيرة ليحوّلها حزباً سياسيّاً موالياً له ، و ظهر ذلك في منتصف التّسعينات بعد إقرار قانون الصّوت الواحد للانتخابات البرلمانيّة

حيث أمسَتِ العشائر أحزاباً سياسيّة موالية للنّظام، رغم أنّ العشيرة لم تُخلق لهذا؛ فهو مخالف لفطرتها الّتي فطرها الله عليها. هذا الواقع يذكّرني بحديث لرسول الله صلّى الله عليه و سلّم حيث قال : " بينا رجل يسوق بقرة إذ أُعيي فركبها فقالت: إنّا لم نخلق لهذا إنّما خلقنا لحراثة الأرض. فقال النّاس : سبحان الله بقرة تكلّم " . وكذلك العشيرة لم تخلق لتكون حزباً سياسيّاً و لكن أرادها النّظام لتكون حزباً سياسيّاً فتلاعب في جيناتها ليتمكّن من ذلك وترتّب على ذلك أنّ أبناء العشائر إذا انضمّوا إلى أحزاب سياسيّة وأرادوا أن يمارسوا دورهم السّياسيّ في الحياة اعتُبر ذلك إنشقاقاً عن كتلة العشيرة ، كما أنّ سمة التّسامح الّتي هي أعظم سمة للعشيرة الأردنيّة بدأت تتلاشى بسبب التّلاعب بجينات العشيرة، وحلّ مكانها تعصّبٌ للحزب السّياسيّ الذي كان يسمّى فيما مضى عشيرة، وهذا التعصّب يجرّ معه عدوانيةً وعنفا وتشرذما لمكوّنات المجتمع بمنطق الأمور، وأصبح العنف بين أبناء العشائر في الجامعات أوغيرها من المجالات سمَة بارزة للمجتمع الأردنيّ ... قلت لخالد مرّة إنّ من يتلاعب بجينات شيء ما سوف ينتج شيئا لا يعرفه، و أتوقع أنّ مطبخ القرار أنتج شيئا لا يعرفه، فالّذي نتج بعد التّلاعب بجينات العشيرة لم يكن حزباً سياسيّاً و لا عشيرة، إنّما هو شيء ثالث غير معروف نحتاج إلى زمن لندرس سلوكه لنسطيع التعرّف عليه، و صار عمر هذا

الشيء عدّة سنوات لذا يمكن التعرّف عليه؛ إذ يظهر أنّه يقدّم ولاءه للعشيرة على ما سواها، و حسابات المصالح لديه هي مصالح العشيرة، و يحاول بقوّة تأكيد ذاته، فنشأ با للاوعي منه تضخيم للذّات ، ومحاولة تعزيز مكانته في المجتمع والدّولة ، وعندما يُمسُّ به تكون ردّة فعله مبالغا فيها ، شعوره بذاته يطغى على شعوره بالدّولة لذلك يسعى لأخذ حقّه بيده على الفور، و بتقدّمه في السّن يتراجع شعوره بهيبة الدّولة ... هو بطبيعته متسامح ولكنّه لا يستطيع ممارسة التّسامح لأنّه يريد دائما أن يظهر بمظهر القويّ، ولذلك فإنّ أبرز صفات هذا الشّيء النّاتج هي العنف الممارس الآن بين مكوِّنات المجتمع، و كذلك العنف ضدّ الدّولة، الذي يتزايد كلّما تقدم هذا الشّئ في السّن وكلما شعر بضعف الدّولة ، و من المتوقّع بشكل قويّ عند ضغطه ممارسته العنف ضدّ حكّامه ، كما أنتج تشرذماً بين أبناء المجتمع وضرب بقوّة قيم الأخوّة الإسلاميّة.

في هذه اللّحظة هزّ خالد رأسه وعلى وجهه شيء من الألم وقال :

*- ما يحدث اليوم يشبه في بعض الجوانب ما كان يقصّه عليّ جدّي وأنا صغير من حكايات العشائر الأردنيّة في عشرينات القرن العشرين، حيث كانت تُحارب بعضها البعض، فالسّلطة تقوم بإرجاع مفاهيمنا ونفسيّاتنا ثمانين سنة إلى الوراء لتحفظ وجودها على الدّوام، ما أقسى هذه السّلطة إنّها تقتلنا بخيط من حرير.

قلت له وأنا أتخيّل وأحسّ ما يقول :

*- لو كان الأمر إرجاعنا ثمانين سنة إلى الوراء لكان الأمر هيّناً، و لكن أُرجِعنا ثمانين سنة إلى الوراء، و نحن شيء مختلف عن أجدادنا، فأجدادنا استطاعوا بما يمتلكون من فطرة صافية السّير إلى الأمام، أمّا نحن فقد تمّت صناعتنا بشكل يمنعنا من التّقدم إلى الأمام حتّى لو أردنا ذلك، نحن لم نُقتَل بخيط من حرير بل نقتل بحُقَنِ الرّجوع إلى الوراء وحُقَن التّشرذم والعدوانيّة ، هذه الحقن هي أقسى عذاب ... أتدري لماذا ياخالد ؟... لأنّها تنتـــــقل إلى الأبناء والأحفاد... إنّها للأسف تُوَرَّث .

أمّا الانقسام فقد انقسم المجتمع إلى أردنيّي الأصل والمنبت، و أردنيين من أصل فلسطينيّ، وهذا الانقسام ليس مشكلة كبيرة كون الغالبيّة السّاحقة من القسمين عربا مسلمين من أهل السّنة ، فلا يوجد اختلاف فكريّ بينهم، فهم في الواقع إخوة أو على الأقلّ أبناء عمومة ... و بخلاف خالد الذي يرى أنّ الانقسام في حدّ ذاته مشكلة كنت أقول له أنّ الانقسام ليس مشكلة، و أستدلّ على ذلك بحديث في صحيح البخاريّ ترويه أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حادثة الإفك فتقول:" فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على

أهلي إلا خيرا، و لقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلاّ خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج ، وكانت أمّ حسان بنت عمّه من فخذه وهو سعد بن عبادة ، و هو سيّد الخزرج، قالت : و كان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد : كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، و لو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عمّ سعد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنّه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيّان الأوس والخزرج حتّى همّوا أن يقتتلوا ، و رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قائم على المنبر، قالت : فلم يزل رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يخفّضهم حتّى سكتوا وسكت، قالت : فبكيت يومي ذلك كلّه لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتّى إنّي لأظنّ أنّ البكاء فالق كبدي ".

فالأوس والخزرج كانوا منقسمين، و لكنّ السّلطة السّياسية في المجتمع كانت تعمل على ردم الهوّة ، و بناء الجسور، والحفاظ على تماسك المجتمع بأقصى طاقة، وكانت شريعة الإسلام بقوّتها الجبّارة تذيب الانقسام مع الزمن، فالمشكلة كما كنت أشرحها لخالد هي

توظيف الانقسام وتوسيعه ليخدم السّلطة، و من هذه الخدمات ترسيخ فكرة في عقول المنقسمين هي أنّ السّلطة هي الوحيدة القادرة على الحفاظ على نسيج المجتمع فإن ذهبت، ذهبت الدّولة وذهب الأمن والاستقرار معها .

و واقع العشيرة الحاليّ بالإضافة إلى الانقسام ، وُظِّفَ لتوجيه رسالة إلى المجتمع الدّوليّ والقوى الكبرى بالذّات أنّ المجتمع مليء بالقنابل الموقوتة، وأنّ الوحيد القادر على نزع الصّاعق بشكل دائم هو النّظام الحاكم فقط لا غير، فهو أساس ودعامة الاستقرار، و بذلك تدفع القوى الكبرى للابتعاد عن التفكير في الاستغناء عنه حتّى لو مجرّد تفكير افتراضيّ .

هكذا عرفنا أنا وخالد من أين نبدأ العمل لتحكيم الشّريعة ، يجب أن نبدأ من محاربة الاستبداد وإرجاع الحقّ للشّعب بأن يختار من يحكمه بنفسه، و هذا سيكون الخطوة الأولى نحو سير الشّعب بإرادته نحو عزّة دينه لأنّه شعب مسلم معتزّ بدينه ذو ثقافة إسلاميّة جيّدة ، و ذو وعي سياسيّ أكثر من جيّد، و ممّا يؤكد ذلك هو أنّ جميع الاستبيانات والاستفتاءات تدلّ على رغبته وقناعته بحكم الشّريعة، إلاّ أنّ الاستبداد هو المانع أمام رغبة الشّعب نحو دينه ، والاستبداد هو ما يغذّي التّشرذم والعدائيّة، وهو ما يزيد حدّة الانقسام وهو ما يرجعنا إلى الوراء دون أن نشعر .

بدأنا أنا وخالد عن طريق منتدى موقع المركز على الإنترنت بحملة تطالب بإرجاع حقّ الشّعب في اختيار حكّامه ، و في حقّه بمحاسبتهم ومراقبتهم ، فالسّلطان للشّعب وبيان أنّ هذه هي الخطوة الأولى لسير الشّعب نحو تحكيم الشّريعة ، و بعد أسبوعين فقط من الحملة، بدأت المنتديات الّتي نشارك فيها بنشر صور بناتي وهنّ كاشفات الشّعر والأذرع، و كان التّعليق الأكثر تداولاً هو :

(من كان بيته من زجاج فلا يرمِ النّاس بالحجارة)

لقد كان بيتي من زجاج هذا ما كنت أشعر به دائماً، و رغم ذلك لم أشعر بالانكسار إلا بعد انتشار صور اختك ناهد في المواقع الّتي أشارك فيها و هي ترقص في إحدى الحفلات مع صديقها بلباس فاضح وكتب تحته (من يريد تطبيق الشّريعة فليطبّقها في بيته أولاً)، لقد كسرني هذا المشهد، كسر ظهري، وكسر عيني أيضاً وأخذ الانكسار يتحوّل شيئا فشيئا إلى غضب عليك وعلى أختك، و خصوصاً ناهد، و وسط هذه الأجواء وصلتُ إلى البيت السّاعة العاشرة ليلاً فوجدتك يا ياسمين وحيدة تقرئين، فسألت عن ناهد فأخبرتِني، أنّها لم تأتِ بعد ، فأخذتُ أقصُّ عليك ما حدث معي وعن صورك أنت وناهد ، وكيف أنّ هذه الصّور كسرتني وتكاد تكسر دعوتي لمحاربة الاستبداد و مقاومة سجن الشّعب لقد قلت لك وأنا منكسر :

*- أنا محتاج لمساعدتك أنا محتاج إليها حقاً .

:- بل أنا المحتاج إلى مساعدتك يا أبي ، أعلم أنّك تريدني أن ألتزم بديني و ألبس الحجاب ولكنّك يا أبي قد نسيتني ، أنا ابنتك الّتي كانت تعاني دائماً من الخوف ، لقد سكن الخوف قلبي وعقلي منذ الصّغر أنا اليوم محتاجة إليك لأشعر بالأمان ، عندما أتخيل نفسي مرتديةً الحجاب وسط بيئة غير ملتزمة أشعر بخوف لا أستطيع أن أتحمّله، أنا يا أبي أكره الوحدة لأنّها تزيد خوفي وأخشى أن يعزلني الحجاب فأعيش وحيدة ، هناك أسئلة قهريّة تهاجمني؛ هل سيغيّر التّديّن حياتي ؟ و إلى أين؟ ... أنا خائفة من عدم القدرة على التكيّف والاندماج في حياة مختلفة ومظهرٍ مختلف .

تفاجئت من كلامك؛ فــلِبس الحجاب عندك ليس بالسّهولة الّتي رأيتها عند أمّك، الالتزام الدّيني يشكّل لك حسب تصوّرك معاناة و آلاما ، فأنت تحتاجين لمن يأخذ بيدك ويعبر معك نحو الالتزام بأقلّ قدر من الآلام، وتحتاجين لمن يقف بجانبك على الدّوام لتحافظي على التزامك ، لقد قرّرت منذ ذلك الوقت أن أسير معك نحو الالتزام ، في تلك اللّحظة دخلت أختك ناهد فعاجلتها بسؤالي:

*- أين كنت يا ناهد؟

:- كنت مع صديقاتي .

اقتربت منها فظهر عليها الارتباك، و حاولَتِ الرّجوع إلى الوراء خطوات عندها قلت لها بإصرار .

*- إين ... و السّاعة الحادية عشرة؟!

:-أنا لا أحبّ أن يتدخّل أحد في حياتي .

صرخت بصوت مرتفع مشبع بالغضب المكبوت:

*- حياتك لا تخصّك وحدك ...حياتك مرتبطة بحياتنا وسمعتك مرتبطة بسمعتنا ...أنت جزء من بيت ، ولا يحقّ لك أن تتصرفي بأنانيّة .

:- أنا حرّة ... كنت في الماضي أسهر و أتأخّر ، عدا أنّي لست وحدي هكذا ؛ فكلّ صديقاتي يسهرن ويتأخّرن .

صرختُ بأعلى صوتي :

*- الماضي يجب أن ينتهي ، أتفهمين؟

أيقظ صراخي أمّك فجاءت مفزوعة خائفة ، فهذا الشّجار غير معتاد في البيت من قبلُ ، فلمّا رأت ناهد أمّها هرعتْ إليها وقالت :

*- أمّي إذا بقي أبي هكذا فسوف أترك البيت .

اشتمّت أمّك رائحة المشروب من فم ناهد فظنّت أن سبب المشكلة هوالمشروب فلامتها قائلةً :

*- ألم تعديني بالابتعاد عن المشروب؟ المشروب دائماً يسّبب لك مشكلات كثيرة .

صعقت ممّا سمعت وصرخت:
*- تأتين في آخر اللّيل وأنت سكرانة!
قالت أمّك وهي ترتجف خوفاً :
*- أنا واثقة أنّها لن تعود لذلك مرّة أخرى .
وما أن أكملت أمّك كلماتها حتّى هويتُ بيدي بأقصى طاقتي على وجه ناهد فارتطم وجهها بالكنب، ثمّ صرخت فيها :
*- لن يكون هناك مرّة أخرى ، المرّة المقبلة سأحطّم رأسك... سأحطّم رأسك .
صدم الجميع من رؤية ما جرى ، فهي المرّة الأولى الّتي يعتدي أحد أفراد العائلة بالضّرب على فرد آخر ، هذا مشهد من العنف غير مسبوق في العائلة ، وناهد تبكي بصوت مرتفع وتقول :
*- لم يحدث هذا العنف إلاّ عندما أتيتنا بتشدّدك ، أنا لا أريد أن أصبح مثلك ، لن ألبس الحجاب ، ولن أترك السّهر ، سأعيش حياتي كما أريد ،لا كما أنت تريد .
ثم زاد انفعالها وارتفع صوتها أكثر:
*- إن كانت حياتنا لا تعجبك فاخرج منها، اخرج منها ولا تدمّرها.
أخذني هذا الكلام وأسكتني وفجّر في داخلي رغبة الخروج من البيت بل هجره ، فخرجت من البيت صامتاً والسّاعة قريبة من منتصف اللّيل، لقد أحسست أنّ بعض أفراد البيت لا يرغب بوجودي،

بعد رجوعي كان الانقسام بيني وبين عائلتي في الأفكار والسّلوك ، أما بعد ممارستي للعنف فقد أصبح الانقسام في القلوب والعواطف والمشاعر، غريب ما يجري؛ أظهر بمظهر المجرم وأخرج من بيتي على غير هدى ، لا أدري إين أذهب، وأنا في الحقيقة ضحيّة ، أنا الأب ، أنا سيّد البيت ، لا أريد أن يسير بيتي كما أريد بل كما تريد شريعة الله ، انا لا أجبرهم على أفكار خاصّة بي، إنّما أريد أن أعيش معهم حسب أحكام شرعيّة لا خلاف عليها في الإسلام ولا عند علمائه ؛ الحجاب ، الخمر ، احترامي كأب، أنا لست مجرماً أنا ضحيّة، لا أدري ماذا أفعل،السّكوت على رؤية بيتي وهو يُدَمَّر مشكلة ، و استعمال العنف أو التّهديد به أيضاً مشكلة، و أن أهجرهم أيضاً مشكلة ، وبعد ساعتين تقريباً من مغادرة البيت، قرّرت الرّجوع إلى البيت وأنا في حيرة من أمري وحزن عميق وضيق شديد .

تخلّلت أشعة شمس الظهيرة من نوافذ المركز، كنت مع خالد نفكّر في المشاركة في منتديات أخرى ، وتطوير موقع المركز على الإنترنت، وإذا باتصال من رقم مجهول، أخبرني المتصل بضرورة حضوري إلى قسم الشّرطة الخاصّ بحماية الأسرة ، و فهمت منه أن ابنتي ناهد موجودة في المركز ... وعلى جناح السّرعة ذهبت ولم يخطر في بالي سوى أنّ ناهد فعلت شيئا يستحقّ الدّخول إلى قسم الشّرطة ، وظللت طوال الطّريق أسأل نفسي ماذا فعلت ناهد حتّى تحتجزها

الشّرطة ، وعندما وصلت باب المركز وجدت شابّاً يقف بجانب سيّارة ناهد ، دخلت فوجدتها جالسة، سألتها عن سبب وجودها هنا، إلا أنّها أشاحت بوجهها عنّي ولم تُجب ، عندها قال الضّابط :

*- أنا أجيبك عن سبب مجيئها ، و لكن تفضل بالجلوس .

أخبرني الضابط عن شكوى ابنتي ناهد ضدّي ، ثم أخرج من مكتبه ورقة مكتوب عليها تعهد بعدم التعدّي اللّفظي والجسدي على ابنتي ناهد ، و طلب منّي كتابة اسمي الرباعي و التّوقيع عليها ، فرفضت رفضاً قاطعاً وتصاعد انفعالي ، فطلب الضّابط من أحد الجنود مرافقة ناهد إلى غرفة بعيدة عن غرفتنا وخاطبني الضّابط بلهجة مليئة بالتّعاطف وقال:

*- أنا مقدّر لكلّ مشاعرك ، ولا أختلف معك فيما تقول ، و لكن يجب أن تعلم أنّك في حال رفضك التّوقيع على هذا التعهد فإنّه سيتم توقيفك ، ثم تحويلك إلى المحكمة وهذا ما لا أريده ، أقسم بالله لا أريد ذلك ، أنا مسلم وابن عشيرة بدويّة ،ولكن هذا هو القانون ، القانون سيّد الجميع .

- ما هذا القانون الذي يجرّم أبا حاول تربية ابنته! ولا يجرّم فتاة تأتي في منتصف اللّيل مخمورة ، تدمّر الأسرة بكاملها وتسيء لسمعة كلّ أفراد أسرتها ! .

*- الخمر قانونيّا مسموح به، وضربك لابنتك حتّى للتأديب ممنوع .

– هذا ظلمٌ !

*– إن كان ظلما فلا تسمح للقانون أن يظلمك ، قلت لك من قبل أنا رجل مسلم، وابن عشيرة بدويّة أفهم مشاعرك جيّدا، فقد حاولت قدر الإمكان أن تخرج من القسم غير منكسر أمام ابنتك حفاظاً على مكانتك كأب في البيت ، أرجوك ؛ وقّع على التّعهد وصدّقني أنّ هذا التّعهّد لا يعني الشّيء الكثير ولكن بدونه لايمكن الإفراج عنك .

وقّعت على التّعهّد وكأني أقصّ إصبعاً من أصابعي بنفسي ، ثم طلب الضّابط إحضار ناهد ، و طلب منها أن تغادر معي ، سارت ناهد معي صامتةً ، وأنا ممتلئ غضبا عليها وعلى عقوقها ، و ما أن وصلنا خارج قسم الشّرطة حتّى أسرعت إلى صديقها الشّاب الذي رأيته عند دخولي القسم ، و ركبا في السّيّارة وغادرا ، و بقيت أنظر إلى السّيّارة حتّى توارت عن الأنظار ، قلت في نفسي مدهوشا:

*– يبدو أنّي أتعرّض لما تتعرّض له شريعة الله من اغتصاب العرش ، و سلب العزّة والكرامة ، فعرشي كأب يُغتصَب وعزّتي وكرامتي كأب تُسلب ، هذه العلمانيّة لم تطرد شريعة الله من بيتها فقط ، بل تطردني من بيتي أيضا، و لكن بشكل غير مباشر وبشكل تدريجيّ ، فاغتصاب عرش الشّريعة يجرف معه عروشا كثيرة منها عرشي في بيتي .

4

مضت الأيّام وحادثة ابنتي ناهد في قسم الشّرطة تقطّع أحشائي دون توقّف ، وشكّل ذلك دافعاً لي للاستمرار في السّير، و أصررت على أن تكون المشاركات باسمي(طارق حسن) وهو الاسم نفسه الذي كنت أكتب فيه مقالاتي لمهاجمة فكرة تحكيم الشّريعة ، إلاّ أن خالدا عارضني في كتابة اسمي على المقالات والمشاركات الّتي رفعتُ فيها السّقف عالياً و حذّرني خالد بقوله:

*–إنّك تجعل من نفسك فريسة سهلة لاقتناصك ، ما تفعله هو أنّك تعطي المبرّر القانونيّ لسجنك ثم تحجيمك إلى حجم ليس له تأثير إطلاقاً.

–لا يوجد دعوة بلا تضحيات.

*– التضحية شيء وأن تفتح صدرك للحراب الموجَّهه ضدّك شيء آخر، أنا أتكلّم عن الصّراع، و أنت اخترت أن تدخل حلبة الصّراع ، وللصّراع أحكام وقوانين ، و مكانك في الصّراع هو المستضعف الذي لا يمتلك إلاّ القليل من القوّة .

ما قاله خالد هو كلام بديهيّ، لكن لا أدري لماذا كانت في تلك الظّروف تغيب عنّي تلك البديهة، ربّما لأنّي بدأت أحسّ بالاستعجال، أو ظنّي أنّ رفع السّقف في الخطاب يجعل خطابي أكثر تأثيراً ،

ولكنّي في تلك الظّروف كنت أرى عدم رفع السّقف أسلوبا من أساليب الاستسلام، وبعد أسبوعين فقط من رفع السّقف ، جاءت مجموعة من ضبّاط المخابرات إلى البيت في ساعة متأخرة من اللّيل ، وبعد تفتيش بسيط ، أخرج ضابط سمين أمراً من محكمة أمن الدّولة باعتقالي ، ثم أخرج أحد الضبّاط القيود وهمّ بوضعها في يديّ ، فنظر الضابط السّمين إلى أمّي و زوجتي و بناتي، ثم التفت وقال :
*–لا داعي للقيود أنّكم مع رجل وديع .

خرجنا وسرنا نحو دائرة المخابرات العامّة في بيادر وادي السّير غرب العاصمة عمّان ، في ليلة كان القمر فيها بدرا يعطي أقصى ما يستطيع من الإضاءة ، ذكّرني البدر الجميل أنّ اللّيلة الّتي أُخرجت أمّي من بيتها و أُدخلت دارالمسنّين كان القمر فيها بدراً أيضاً ، تسائلت في نفسي حول العلاقة بين دار المسنّين و دائرة المخابرات العامّة في هذا البلد، وصلنا وإذا بي في مواجهة بناء حجريّ ضخم ، أعطته الإضاءة من أسفله و أعلاه ضخامة أكثر من واقعه الحقيقيّ ، كما أنّه بناء حجريّ بالكامل ، أعطته الأحجار المتساوية المكرورة بانتظام إيحاءً بالقوّة والمتانة والصّلابة ،دخلنا فشعرت بالرّهبة الّتي تلاشت بعد أن وضعت أغراضي في قسم الأمانات ، ثم سرت مئات الأمتار، و لم أشاهد سوى أبواب على الجانبين ، علمت فيما بعد أنّها مكاتب للضبّاط ، كم هي كثيرة مكاتب الضبّاط! دخلت

الزّنزانة، و أُغلق باب الحديد مُحدثا صوتاً كسر جدار سكون اللّيل ، و قذف على جسدي قشعريرة نهشت عظامي، وقفت وإذا بي وسط زنزانة مساحتها ثلاثة أمتارٍ في مترين، باب من حديد في غاية القوّة في أعلاه كوّة صغيرة لا تتعدّى ثلاثين في عشرين سم، و في الجهة المقابلة للباب نافذة ملتصقة بالسّقف، تحتها سرير نظيف ، وعلى يسار الباب مقعدة بيضاء لقضاء الحاجة بجانبها مغسلة صغيرة جدّاً، هذا كلّ ما هو موجود ، لا حواجز داخل الزّنزانة ؛ فالسّرير والمغسلة و حتّى المقعدة تكشف بعضها البعض حتّى الأعماق ، كلّ ما في الغرفة تستطيع قراءته بسهولة، إلاّ المقعدة الّتي تجلس عارية بلا خجل فإنّك تجد صعوبة في قراءة الرسائل الّتي تبعثها بشكل متواصل ولا يُيسِّر لك قراءتها إلا جلسات التّحقيق، فبعدها استطعت قراءة جميع رسائل المقعدة العارية وهي تتمحور حول فكرة أنّك مكشوف حتّى في قضاء الحاجة، فالتستّر عبث لا يفعله إلاّ الّذين لم يقوموا بعمل صداقات مع مقعدة عارية مبتسمة مثل الّتي في زنزانتي ، لبست البدلة السّماويّة المصنوعة من الكتّان و نمت تلك اللّيلة وأنا أدعو الله عزّ وجلّ في الثّلث الأخير من اللّيل أن يثبّت أقدامي ، و يغفر لي ذنوبي فقد أمضيت سنوات عديدة من عمري بعيدا عن الله ، لم أنم بسرعة مع أنّي لم أكن خائفاً ولكنّي كنت قلقاً ، وبعد

ثلاثة أيّام تقريباً دُعيت إلى التّحقيق وما أن خرجت من باب الزّنزانة حتّى صاح العسكريّ :

*– اغلق ....اغلق .....اغلق

وعلى الفور قام عسكريّ آخر بإغلاق كوّات أبواب الزّنازين الّتي سأسير أمامها ، حتّى لا أرى من في داخلها، ولا يراني من فيها ، وإغلاق الكوّات واحدة تلو والأخرى بانتظام أوحى لي وبشكل ملفت ،أنني في حضرة شيء مصان ذي هيبة ويده طائلة تصل إلى حدّ منعك رؤية أيّا كان ، و حجبك عن الآخرين حتّى لو كنت تسير أمام أبوابهم ، يد قادرة على التّحكّم في أشياء كثيرة حتّى في النّوافذ الصّغيرة الوحيدة لغرف من لا حول لهم ولا قوّة ، دخلت غرفة التّحقيق وحاول المحقّق إقناعي أنّهم على دراية بكلّ ما يجري في البلد ، و أنّني قبل أن أفقد ذاكرتي كنت صديقاً لدائرة المخابرات العامّة ، عندها سألته ماذا يقصد بقوله صديقاً لهم أجاب بعد أن عدّل جلسته :

*–أقصد أنّك كنت تقبل توجيهاتنا بغضّ النّظرعن قناعتك بها .

– هل تقصد أنّي كنت مخبراً لكم؟

*– من يكون في وضعك؛ دكتورا ومدير مركز دراسات لا يكون مخبراً بل ولا عميلاً ، إنّما نوجّهه إلى حيث نريد عند الحاجة فقط،

فنحن لا نجمع معلومات و حسب ، بل نوجّه الجميع، فتوجيه المجتمع والدّولة أهمّ بالنسبة لنا من جمع المعلومات .

عدت إلى زنزانتي وأنا ممتلئ بالحسرة والألم أكثر من لحظات معرفتي بخيانة زوجتي، وعقوقي الكبير لأمّي لإدراكي بأنّي كنت جزءا من منظومة الهيمنة التّابعة للمخابرات العامّة ، سبب الحسرة والألم يكمن في قناعتي أنّ القبضة الأمنيّة للمخابرات على الحياة العامّة تسبب إعاقة حركتنا كشعب مسلم وإعاقة في عواطفنا وعقولنا وأيضاً في أخلاقنا ، فقد كنت أقف في الصّف الخاطئ ، كم كانت حياتي السّابقة مليئة بالمساحات المظلمة! إنّه ظّلام يقود إلى مزيد من الظلام ، لقد كَفَّرتُ عن كلّ ذنوبي السّابقة فالشّريعة الّتي كنت عدوّ عودتها لعرشها المغتصَب ، ها أنا أكفِّر عن ذلك بإيقاف نفسي ومالي لعودتها إلى عرشها عزيزة كريمة ، و أمّي بررتها بعد العقوق الأليم، و زوجتي الّتي كنت أخونها ها أنا أغضّ البصر عن كلّ امرآة سواها ، لكن كيف أكفّر عن خطيئة المشاركة في توجيه هذا الشّعب المسلم إلى اتجاه مخالف لمصالحه ومصالح دينه العظيم ... كيف؟! أتوقّع أن لا يكون ذلك إلاّ بمحاربة القبضة الأمنيّة على حياة الشّعب المسلم ليستطيع السّير إلى الأمام نحو عزّته وعزّة الشّريعة المطهَّرة ... ليس أمامي إلاّ ذلك .

دخلت الّزنزانة فوقع بصري على كتاب الله ،هجمت عليه بشراسة العاشق،.... ياه ... فوقْعُ الآيات شديد... شديد، والقرب من الله شديد.... شديدٌ أيضاً ، لم أشعر بوقع الآيات إلى هذه الشّدّة إلاّ في الأيّام الّتي قضيتها مع سالم، وأنا عند سالم كان الأثر العميق تحدثه الآيات الّتي تضرب أعماق رجل قُطِع عن ماضيه وفقد ذاكرته ، أمّا في الزّنزانة فإنّ الأثر الشّديد تُحدثه الآيات الّتي تدقّ بقوّة قلب رجل مسجون هو والشّعب المسلم ، و ترافقهم في سجنهم شريعة الله ، آيات كثيرة تبيّن وبشكل لا لبس فيه أنّ البشر موجودون على هذه الأرض ليعيشوا خارج السّجون عندما قرأت قوله تعالى :(قُلْ يا أَهْل الكتابِ تعالوا إلى كلِمَةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ اللهَ ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ) تسمّرت عيناي على الآية ولم أستطع أن أتعدّاها إلاّ بعد أن نزلت دموعي ، فقد بعث الله الأنبياء ليخرجوا البشر من عبادة البشر إلى عبادة الله ربّ البشر، الربّ الواسع الكبيرالله جلّ جلاله ، فعبادة البشر سجن قاسٍ أليم ، وعبادة الله تحطّم جدران السّجون، كلّ أنواع السّجون ، سواء أكانت في القلب أم في العقل أم شيّدها البشر ، فقد خلقنا الله لنعيش خارج جدرانها لنندفع للسّير بخطى واثقة نحوالعزّة و الكرامة ، لقد اقشعرّ بدني وأنا أقرأ قوله تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم) فقد أخرجه الله من كل سجون المذلّة والامتهان، ولا خروج من هذه

السّجون إلاّ بشريعة الله ، إنّ فطرتنا البشريّة تنادي من أعماقنا شريعة الله ، إنّ فطرتنا ستبقى أبدا تنادى من وراء جدران السّجون شريعةَ الله ليخرجا معاً إلى الحياة .
بعد يومين طُلِبت للتّحقيق ، سرت كالمرّة السّابقة وعندما وصلت إلى بداية الممرّ فُتح باب أحد المكاتب وخرج منه سجين برفقة عسكريّ فصاح العسكريّ بالسّجين :
*- وجهك للحائط ... بسرعة .
فأدار السّجين وجهه للحائط بسرعة، و سرت إلى مكتب تحقيق آخر وتمّ أخذ إفادتي الّتي اعترفت فيها بكلّ المقالات والمشاركات على الإنترنت الّتي كان السّقف فيها عالياً ، ثمّ أُخرِجتُ من المكتب ، و ما أن سرت خطوات حتّى خرج سجين آخر من مكتب قبالتي، فصاح بي العسكريّ لأقف وأحوّل وجهي تجاه الحائط ، لم يكن حائطا بل بابا لمكتب توافق ذلك مع خروج محقّق من ذلك الباب فاصطدم بي فوقعت وارتطم رأسي بالأرض بقوّة افقدتني الوعي ، اسيقظت بعد عدّة ساعات في غرفة أشبه بالعيادة داخل مبنى المخابرات العامّة ، و بعد التأكّد من سلامتي أُرْجِعْتُ إلى زنزانتي، بعد دقائق بدأت أستوعب شيئا فشيئاً أنّ ذاكرتي رجعت إليّ .
ياه كم كنت سيئاً وبشعاً بل وحقيراً ! لقد تذكّرت كلّ شيء ، رأيت حياتي القديمة كم كانت مظلمة! و رأيت وجهي في الماضي كم كان

بشعاً ! في تلك اللّيلة قرّرت وبشكل جازم أن لا أخبر أحداً بذلك، وأتعامل كشخص فقد الذّاكرة لأنّ ذلك أفضل وأقلّ ألماً، فأنت يا ياسمين أوّل من أخبره الآن برجوع ذاكرتي إليّ، ولكنّي استغربت رجوع الذّاكرة لي بسبب خطأ غير مقصود لأحد ضبّاط المخابرات ، كم هي نافعة الأخطاء غير المقصودة لدائرة المخابرات! لقد أرجعت لي هذه الأخطاء ذاكرتي المفقودة ، و ربّما تستطيع الأخطاء غير المقصودة لدائرة المخابرت العامّة أن تُرجع للشّعب المسلم أشياء كثيرة مفقودة .

وجلست في زنزانتي أتذكر الماضي بكلّ ما فيه ، و كان أبشع ما فيه العلمانيّة ، فقد فهمتها جيّدا وحاولت أن أكون علمانيّاً بقدر استطاعتي ، فالعلمانيّة دين جديد بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى ، دين بلا قلب ، عندما حجرت على أمّي قال لي البعض إنّها أمّك قلت لهم :

*- الأمّ الّتي تضر بمصلحتي هي عدوّة لي .

العلمانيّة دين كاسح ومدمّر للثوابت والأسس والأصول الرّأسخة الّتي لا تتحرك ، فتجعلك تحسّ أنّ الأرض تضطرب من تحتك وأنت تتراقص تبحث عن مستقرّ لك فلا تجد ولن تجد ، العلمانيّة تسحرك فتحوّلك إلى باحث لا يكلّ ولا يملّ عن اللّذات والمتع الشّخصيّة ، كم خنت زوجتي مرات ومرات لأجل اللّذة والمتعة، و لكنّي كنت دائماً ضيّق الصّدر، وكلّما أنغمست في اللّذة الحرام ازداد صدري ضيقاً

وعقلي تشتتاً ، و حينما يقال لي عن جريمة خيانة الزّوجة كنت أقول لهم :

*- أين الجريمة إذا كانت زوجتي تعلم ؟! أنا لا أجبرها على العيش معي، في أيّ وقت يمكنها مغادرة البيت .

العلمانيّة لا مجال فيها للضّعفاء ، فالغاية فيها تبرّر الواسطة ، و البقاء فيها للأصلح والأقوى والأقدر على التكيّف ، والإنسان فيها ذئب للإنسان الآخر فإن لم يكن ذئباً فإنّ الذئاب البشريّة سيأكلونه، أمّا عواطف المحبّة والتّسامح والتّراحم فهي عند العلمانيّة مؤامرة الضّعفاء والمهزومين ضدّ الأقوياء ، عندما قيل لي : كيف تتعاون مع المخابرات وتساهم بخنقنا بقبضتها الأمنيّة قلت لهم مبتسماً :

*- أنا سأكون دائماً في صفّ الأقوياء ، لايهمّني شكل الأقوياء أو أعمالهم سواء أكانت قذرة أم رحيمة وعفيفة، ما يهمّني أن أقف بجانب الأقوياء فقط ، وما سوى ذلك فهو يصلح لمواضيع الإنشاء والتعبير وقصص الأطفال فقط .

العلمانيّة تسلب الإنسان إنسانيّته فتحولّه إلى مجّرد مادّة أو إلى سلعة أو إلى وسيلة بأيدي الأقوياء ... العلمانيّة هي أكبر سجن على وجه الأرض . لا يوجد فيها مساحة للإنسان القدوة الحسنة ليُقتدى به في ظلمات التّيه ، العلمانيّة تترك الإنسان يذوي دون مساندة حين تتركه يلهث وراء سراب اللّذة دون زواجر و روادع داخليّة ، فيحمل عبئاً

ثقيلاً يفوق طاقته وبالتّالي يكسر ظهره ، لا تستطيع البشريّة أن تعيش أو تسير أو أن ترى بوضوح دون أن يكون للبشر قدوة حسنة ومحلّ للاتّباع ، لم أشعر بعظم ما يقوم به دعاة السّنة ومحاربة البدع إلا هذه اللّحظة ، فهم يناضلون لتبقى شخصيّة الرّسول مُحمَّد صلّى الله عليه و سلّم نقيّة صافية منيرة، دون أيّ تشويه أو غلوّ أو تحريف ، هي القدوة للبشر وهي محلّ الاتّباع .

آه ....وأخ ... ما أقسى وأبشع ما قامت به العلمانيّة إنّها اغتصبت عرش شريعة الله وطردتها من دارها و قذفت بها في غياهب السّجون، و أطلقت الرّصاص الحيّ عليها دون توقّف، و ياليتها توقّفت عند ذلك، بل حفرت قبراً عظيماً يتّسع لدفن الأمّة بكاملها، يا إلهي ....يا إلهي ...يا إلهي أي شفرات عظيمة تلك الّتي تفرمنا وتهرسنا دون أن نصرخ ، ودون أن نثور ، من أين جئنا بهذا الصّبر العملاق؟! من أين جئنا بهذه القدرة الجبّارة على البقاء؟!

خمسة أيّام مضت على حادثة الارتطام ، و رجوع ذاكرتي ، تأكّد بعدها طبيب الدائرة أنّي في صحّة جيّدة ، و أن لا مضاعفات لضربة رأسي ، عندها حُوِّلتُ إلى محكمة أمن الدّولة ، أخذت أغراضي من قسم الأمانات و قُيّدت من الخلف وركبت السّيّارة برفقة ثلاثة من العساكر ، سارت السّيّارة ببطء ، حتّى خرجنا خارج أسوار الدائرة وعيناي لا تفارق المبنى ، سرنا و سور الدائرة يرافقنا ،كم هو ضخم

ومرتفع هذا السّور! توحي لك أحجاره البيضاء الجميلة وارتفاعه وطوله الكبير وعرضه المتين أنّك أمام حمًى مُصان ،كما توحي لك أسواره أنْ لا مجال للدّخول أو الخروج منها إلا بإذن، كما أوحت لي الأسوار وهي تسير معي وتحاول وداعي إلى محكمة أمن الدّولة أنّي أمام سياج خلفه شعب وطموحات وآمال وعلماء قتلهم الانتظار وهم ينظرون إلى ساعاتهم لكي يخرجوا قبل أن يفوتهم قطار الزّمن فيصبح الخروج من عدمه سواء ، فارقنا الأسوار، وإعجابي بمنعتها وحماها المصان أَنْزَل رأسي إلى أسفل فآلمتني القيود المُحكَمة على يديّ من الخلف ، و لكنّي لم أُبالِ بالألم لأنّي تذكّرت أنّ من أُحِبُّها وأعشقها تهدّمت أسوارُها المنيعة، و أمسى حماها مستباحا ينتهكه الذّليل قبل غيره ممّن يملكون القوّة ، لقد تذكّرت شريعة الله ، كم هو حارق ومذيب للجلد والشّحم اغتصاب حماها ومهابتها ! كم هي مُقطِّعة للأوصال و اللّحم والعصب أوجاع هدم الأسوار المنيعة و استباحة الحرمات العظيمة ! أصبحت أتذكّر شريعة الله عند رؤية مشاهد العزّة والعظمة و مشاهد الحمى المصان و مشاهد الرّجال الكبار وهم يركضون إلى الأمام بحرّية .

السّيّارة تمشي وهي في طريقها إلى محكمة أمن الدّولة شرق العاصمة عمّان ، و في الطّريق رأيت محلّ الخمور الذي قرأت رخصته ، ما زلت أحفظها عن ظهر قلب ، و لمحت أن الزّجاجات

الكبيرة ما زالت في صدر بيتها مرفوعة الرّأس بهيئة الفخامة كأُسود في عرينها، ورأيت إعلان القرض الرّبوي بأثوابه الجذّابة مغرورا و هو ملتصق بالمصرف الذي ما زال يجثم شامخاً عزيزاً متكبّراً ومتعالياً ، صدّقيني يا ياسمين إنّني في تلك اللّحظة سمعت آهات وأنّات عرش الإسلام بصوت عالٍ .

وصلنا محكمة أمن الدّولة و أُخِذَتْ إفادتي عن الأسئلة نفسها الّتي طُرحت عليّ في دائرة المخابرت مع اختلاف في بعض الكلمات، قادني تشابه الأسئلة إلى إحساس بتشابه ضبّاط محكمة أمن الدّولة مع ضبّاط المخابرات العامّة باستثناء اللّباس؛ فضبّاط المحكمة يلبسون اللّباس العسكريّ وضبّاط المخابرات يلبسون اللّباس المدنيّ ، و بعد الانتهاء من الإفادة سأل أحد العساكر ممّن حضر معي :

*–إلى أين؟

أجاب موظف القلم في محكمة أمن الدّولة :

*–إلى سجن الجويدة .

سرنا نحو سجن الجويدة جنوب العاصمة عمّان ، وعند خروجنا من أسوار المحكمة ، لفت نظري أن مبنى محكمة أمن الدّولة يتربع على قمّة جبل، و كذلك مبنى المخابرات العامّة يتربع على قمّة جبل أيضاً ، عندها أيضاً تذكّرت شريعة الله ؛ لقد كانت فوق القمّة أمّا الآن فهي في غياهب السّجون تحت الأرض ، أَعلمُ يا ياسمين أنّك

ستقولين في نفسك أنّي قد بالغتُ في تذكّري شريعة الله بهذه الحساسيّة الزائدة ، وأنا أعذرك، و لكن هذا ما حدث معي بالفعل، وهذا ما شعرته بالضّبط ، ففي تلك اللّحظات كان إحساسي بشريعة الله مرهفاً ، و يرافق الإحساس المرهف بها حبّ وعشق عميق ينبع من أعماقي و أنا مقيّد حزين .

5

وصلت السّيّارة إلى سجن الجويدة ، و سُلِّمتُ إلى إدارة السّجن ، اقْتِدْتُ إلى قسم الأمانات ،و فيه طلبَ الشرطيُّ أن أخلع جميع ملابسي و أضعها في كيس بلاستيكيّ أسود باستثناء السّروال الدّاخليّ ثم أرتدي بدلة السّجن ، عندها قلت ببراءة :

*- هكذا ستنكشف عورتي !

:-نعم ستنكشف عورتك !

*- لكن هذا لايجوز شرعاً! ... هل من الممكن أن لا أتجرّد من البنطال أو أن أخرج قليلاً لخلع البنطال؟

:- لا يمكنك إلاّ في حضوري ، إمّا أن تضع ملابسك عنك بإرادتك أو أن تضعها رغماً عنك ، لاخيار ثالث لك .

ثمّ نظر إليّ الشرطي و رأى رجلاً في أواخر الأربعينات من عمره فسألني:

*- أنتَ... ماهي تهمتك؟

أخبرته عن تهمتي الواقعة في دائرة حقّ إبداء الرأي ، عندها تغيّرت لهجة الشّرطي واتّجهت نحو الرّفق والهدوء وقال لي :

*- أنت من الشّيوخ إذن؛ وهو يقصد السّجناء الإسلاميّين ، ولكن هذا هو القانون ؛ يجب أن تخلع ملابسك أمامي .

خلعت ملابسي أمامه وقلت في نفسي أنا مضطر. ذهبت إلى غرفة الاستقبال ، و في الطّريق رأيت وجوهاً مصبوغة بالإجرام تفوح منها رائحة الحثالة ، دخل في صدري شيء من الاكتئاب ، أخذ بالتّصاعد مع تكرّر مناظر هاتيك الوجوه ، و في المساء أُغلقت الغرفة ، و بعد قليل طلب شاويش الغرفة من الجميع التّجمّع عند الباب لتوزيعنا على الأسرّة ، و الشّاويش هو سجين من السّجناءعيّنته إدارة السّجن ويشترط فيه أن يكون مقبولاً عند أغلبيّة السّجناء وقادرا على حفظ النّظام في الغرفة ... وضعَ الشّاويش كلّ إثنين تهمتاهما متشابهتان على سرير واحد ؛ و ذلك لكثرة السّجناء وقلّة الأسرّة ، فجاء نصيبي على سريرعلويّ بجانب رجل في الأربعينات من عمره يظهر على وجهه الأدب والبشاشة ، اسمه طاهر و يعمل مدرّسا ، بادرني بالحديث ، و سألني عن تهمتي ، فأخبرته قصّتي، فقال لي :

*- إذاً أنت سجين سياسيّ .

:- وأنت ماهي تهمتك ؟

*- ضربتُ طالبا عمره سبع عشرة سنة عندما قام بالتّهجّم عليّ أمام الطلبة ، و لو لم أقم بضربه لكنت أنا المضروب ، لقد ضربته ضرب تأديب فلم أشقّ له لحما و لم أكسر له عظما ، القانون في هذا البلد يريد من المدرّس أن يكون قسّيساً ، إذا ضربه الطّالب على خدّه

الأيمن فلكي يستوعبه و يتجنّب العنف فعليه أن يدير له خدّه الأيسر، إنّني لم أشعر بالمرارة في حياتي كما أشعر بها اليوم .

وبعد حديث طويل تخلّلته صلاة العشاء ذهبت إلى الحمّام ، و لمّا عدت ، و جدت المدرّس قد غطّ في نوم عميق، فوقفت أفكّر ماذا أفعل؛ فنوم إثنين في مضجع واحد باستثناء الوالدين مع الأبناء محرّم بنصّ حديث صحيح عن الرّسول صلّى الله عليه و سلّم، ماذا أفعل الآن ؟ فقبل ساعات كشفت عورتي أمام الشرطيّ ! والآن لا أجد مكانا للنّوم إلاّ مع رجل في مضجع واحد! و غداً لا أدري أيّ محرم سأضطرّ لارتكابه، يبدو أنّ الحياة في السّجون لا تسمح لأحد الالتزام بدينه حتّى لو أراد ، الظّاهر أمامي أنّي في وضع استثنائيّ... نمت مع المدرّس في مضجع واحد ، مع وجود النّص على حرمة ذلك ولكن لا خيار لديّ .

قبل الفجر بقليل أيقظ الشّاويش الجميع ، وطلب منهم شطف ساحات المهاجع ، و أخذ الشّاويش و ثلاثة من مساعديه يوزّعون المسّاحات والمكانس و دلاء الماء على الجميع ، ثمّ وزّعوا كلّ مجموعة على ساحة ، و بدأ الجميع بالشّطف لكنّي بقيت ممسكاً بالمكنسة صامتاً ، مكتئـــباً واجماً لا ترمش عيناي، جائني الشّاويش وقال :

*- خمس دقائق وينتهي كلّ شيء ...هيّا .

رميت المكنسة على الأرض ودخلت إلى الغرفة وجلست على سريري العلويّ وأنا ممتلئ غيظا واكتئابا ، أمر الشّاويش مساعديه بتركي وعدم التّعرض لي نهائيّاً ، و بعد دقائق نزلت عن السّرير ووقفت أمام النّافذة المطلّة على السّاحة ، فرأيت المدرّس يشطف السّاحة بهدوء ، فأشرت له بيدي أن يترك المسّاحة ويأتي ، فأشار إليّ بالانتظار قليلاً ، و بقيت أنتظر و المدرّس يشطف ، فناديته فأشار لي بالإشارة السّابقة نفسها فناديته باسمه :

*– طاهر .....طاهر

نظر إليّ وبقي يشطف حتّى اكْتمل شطف السّاحة ، وعندما جاء المدرّس عاتبته لأنّه لم يرم المسّاحة وقَبِل بالإهانة إلى هذه الدّرجة، فأجابني بمرارة وهو مبتسم :

*–لو رميتُ المسّاحة لضربني الشّاويش ومساعدوه ، أنا لست مخيّراً بين الكرامة والإهانة بل أنا مخيّر بين إهانة الشّاويش ومساعديه وبين إهانة الشّطف، فاخترت أهون الإهانتين ، إذا كان ثمن الكرامة هو إهانة أكبر مع عدم الحصول على الكرامة فإنّي لن أدخل في صفقة خاسرة .

– أرى ما تقوله منطقيّ و لكن فيه رائحة الاستسلام .

*–هذا منطق جماهير النّاس، و هم يحصلون عليه بفطرتهم ممزوجة بتجاربهم .

- وممزوجة أيضاً بثقافتهم وإيمانهم وشريعتهم .

*- صحيح ، فالشّريعة تعدّل وتهذّب هذا المنطق في نفوسهم ، لكنّه يبقى موجوداً ، على كلّ الأحوال أنا تعلّمت من تجربتي .

- وماذا تعلّمت ؟

*- تعلّمت أن أدخل في صراع الحفاظ على كرامتي وهيبتي كمعلّم ، فأنا سأبقى أُضرب الطّلبة المشاغبين بقصد تربيتهم و تأديبهم وهؤلاء لا يزيدون عن خمسة بالمئة من الطّلاب ، فإذا قدّم أحدهم شكوى ضدّي في مركز الأمن ، فعلى الفور سأخرمش صدري وأكشط يدي بدبوس ثمّ أحصل على تقرير طبّيّ من المستشفى وأقدّم شكوى بحقّ الطالب بأنّه هو من قام بذلك ، و عندها ستكون شكوى مقابل شكوى ولن أُسجن.

- ولكنّك قمت بالكذب والافتراء ، وهذا حرام ، كما أنّك نزلت إلى مستوى لا يليق بك !

تنهّد المدرّس عدّة مرّات ونظر إليّ وهزّ رأسه و تابع حديثه:

*-أنا لم أكذب ، و لم أفتر، إنّما دفعت الظّلم عن نفسي ؛ عندما يكون خصمك القانون فلا خيار أمامك إلاّ أن تفعل مثلي ،أنا يا أبا ياسمين نموذج لمن خصمهم القانون ذاته ، و أتوقّع أنّ كلّ شخص أو جماعة يكون القانون خصمهم سيقومون بما قمت به ، و إلا سيدوسهم القانون برجليه الثقيلتين .

و أثناء كلام المدرّس جاء الشّاويش و وجّه كلامه لي :

*- لقد وضعت اليوم مكانك في شطف السّاحات شخصا ودفعتُ له دينارا وصدّقني هو الدّينار الوحيد الذي أملكه .

قمت بإعطاء الشّاويش ديناراً ، فلمّا قبض الشّاويش الدّينار ، خاطبني راجياً :

*- أنا محتاج لدينارين لمسألة ضروريّة وعاجلة ، و أقسم أنّي سأُسدّد لك المبلغ عندما تأتيني زيارة ، و احتمال أن تأتيني اليوم مع أنّه احتمال ضعيف لأنّه نادراً ما تأتيني زيارة يوم الثّلاثاء.

قمت بإعطاء الشّاويش دينارين ، فقبضهما و غادر على الفور مسروراً، ابتسم المدرّس وقال:

*- هل أدركت الآن لماذا تركك الشّاويش ومساعدوه ترمي المكنسة و تحافظ على كرامتك .

مضت الدّقائق والسّاعات وأنا أفكّر فيما قاله المدرّس محاولا فهم منطق الصّراع الذي تحدّث عنه، و بينما نحن جالسان بجوار المسجد سمع المدرّس اسمه من شبّاك الزّيارة، فهرع على الفور، و بعد الزّيارة جاء متجهّماً فسألته عن سبب تجهّمه، فأخبرني :

*- سوف أخرج اليوم من السّجن بكفالة، بعد أن دفع أهلي لأهل الطالب مئتي دينار لكي يتنازلوا عن الشّكوى ، الله أكبر ما ألدّ خصومة القانون ، نصيحتي يا أبا ياسمين إذا واصلت عملك في

مقاومة الاستبداد والعمل لتحكيم الشّريعة ، فإيّاك أن تسمح للقانون أن يدوسك مثل ما داسني .

وبعد فترة الزّيارة الّتي تستمرّ للسّاعة الواحدة ظهراً ، خرج المدرّس من السّجن ورغم قصر العشرة فقد حزنت على فراقه وأحسست بفقدان الونيس، نحن نحتاج للونيس في حياتنا وخصوصاً في الظّروف الاستثنائيّة الّتي تمرّ بنا ، وكلّما اشتدّ الألم و زاد الانكسار ازدادت حاجتنا لشخص يكون بجانبنا نعبر معه محطّة الألم ومسافة الانكسار، و تزداد شدّة الألم لدرجة تمنّي الموت إذا عبرت محطّة الألم ومشيت مسافة الانكسار وحيداً... ياه... ما أقسى الألم و الانكسار مع الوحدة، و ما أبشع الوحدة مع الألم والانكسار ، لقد شعرت في تلك الأيّام الّتي قضيتها وحيداً بكلّ ذلك .

بعد العصر، نُقلتُ إلى مهجع (هــ) غرفة (18) و قبل المغرب بقليل دخلت الغرفة وحيداً ، لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني ، أخذت أنظر بهدوء وحذر إلى كلّ من في الغرفة ، فالأشخاص المنبطحون على الأرض أكثر ممّن هم على الأَسِرَّة ، فعندما دخلت السّجن رأيت وجوهاً مصبوغة بالإجرام تفوح منها رائحة الحثالة ،أمّا في هذه الغرفة فصبغة الإجرام على أهلها قاتمة ورائحة الحثالة أزكمت أنفي ، مشيت وسألت الشّاويش عن سريري فضحك وقال :

*– أنت ليس لك سرير ، أنت ستنام على الأرض ، انظر حولك فقد لاتجد مكاناً لك حتّى على الأرض ... أنت ، ما هي تهمتك؟
أخبرته بتهمتي ، فتغيرت لهجته وقال مستغرباً:
*– أنت لا يجب أن تكون هنا ، أنت مكانك في مهجع الشّيوخ ،على كلّ حال يمكنك أن تدفع لنزيل نصف دينار في اليوم و تنام مكانه في السّرير إلى أن يتم نقلك إلى الشّيوخ .
وقمت بدفع نصف ديناريومياً للشّاويش ،وقد اكتشفت لاحقاً أن عشرة أسرّة هي تحت سيطرة الشّاويش يقوم بتأجيرها وبيع بعضها أحياناً ، صعدت على السّرير الذي يشاركني فيه رجل في الأربعينات من عمره ، لم أستطع النّظر إلى وجهه ، و أجمل ما فعله أنّه لم يحاول الحديث معي ، أو التقرّب منّي ، وفي وسط تراكم الآلام رأيت عند باب الغرفة عشرة أشخاص تقريباً يهمّون بصلاة المغرب ، فهرعت للصّلاة معهم و لّما أنهينا الصّلاة ، قام أحدهم على الفور وأقام الصّلاة، فسألت من بجانبي :
*– ماذا ستصلون؟
– سنصلّي العشاء ، فحن نجمع المغرب والعشاء يوميّاً.
فتراجعت إلى الخلف خطوات وصلّيت سنّة المغرب ، وذهبت إلى سريري ، وأنا رافض في داخلي لما يقومون به ، فالجمع بين الصّلاتين يكون في السّفر والمطر والحرج الشّديد، و نحن لسنا على

سفر ولا مطر و لسنا في حرج شديد يمنعنا الصّلاة ، وبعد أذان العشاء ذهبت نحو الباب إلى المكان الذي صلّينا فيه المغرب ،فوجدته مزدحما بالأشخاص المنبطحين ومنهم من يغطّ في نوم عميق ، فبحثت في الغرفة عن متسع لأصلي فيه فلم أجد ، وأُصِبتُ بالحيرة والضّيق ، ثمّ رجعت إلى سريري وأنا لا أدري ماذا أفعل ، فأنا لا أجد أمامي مكانا أستطيع الصّلاة فيه إلا سريري العلويّ فتوجهت نحو القبلة ، و صلّيت على سريري جالساً ، لقد آلمني ما حدث فأنا مخيّر بين الصّلاة في غير وقتها وبين الصّلاة جالساً كالعاجز ، في كلّ يوم في السّجن تضطرّ أن تخالف حكماً شرعياً تؤمن به ، يبدو أنّ فقه الضّرورة واسع جدّاً في السّجن ، بخلاف الحرّيّة فإن فقه الضّرورة فيها ضيق جدّاً .

ومضى اليوم تلو الآخر و أنا في سجني وحيد ، و في يوم الأحد وهو من أيّام الزّيارة ، سمعت اسمي من كبائن الزّيارة ، فهجمت على سمّاعة الهاتف بلهفه شديدة ، فرأيت خالداً ينتظرني خلف الزّجاج الشّفّاف ، كنتُ في الحقيقة أنتظره أيّاماً، سألني عن حالي ، فأظهرت له عدم إكتراثي بالسّجن ، و حاولت بعزيمة صادقة إخفاء كلّ آلامي و معاناتي، وأخبرته أنّي مرتاح ولا شيء يزعجني سوى بعدي عن الدّعوة وتوقّف سيري في محاربة الاستبداد ، انتهت الزّيارة بعد أن أخبرني خالد أنّه وضع لي مبلغا من المال و بدلة

رياضيّة في الأمانات ، و البدلة الرياضيّة هي لباس السّجناء في العادة داخل السّجن، و دّعت خالدا و طعم حلاوة لقائه حاضراً في قلبي ... كنت أجترّ حلاوة لقاء خالد حين سمعتُ اسمي مرّة أخرى ، فتوجهت إلى الكبينة، وفي ذهني أن خالدا نسي أن يخبرني شيئا، و ما إن اقتربت من الكبينة حتّى تراءت لي زوجتي بابتسامة عريضة، رأيتها أعرض من مدينة عمّان بكاملها، غمرتني لذّة المفاجئة وأخذت أتجاذب الحديث معها مبحراً في صوتها و وجهها ، وإذا بيدٍ ناعمةٍ تضرب على كتف زوجتي ، فالتــفتُّ إلى صاحبة اليد فإذا بفتاة تلبس الحجاب تبــتسم لي ابتسامة تخطّتْ كلّ قوى المقاومة والممانعة لديّ فانهمرت دموعي دون قدرة على إيقافها، لقد كانت هذه الفتاة هي أنت يا ياسمين ، لملمت قواي المتآكلة والمبعثرة، و قلت لك وعيني على حجابك وعلى دموعك الّتي انساحت لدموعي على خدك المضيء بالحجاب :

*- الله يجزيك الخير .... الله يجزيك الخير .... الــــــلّـــــــه يجــــــزيك الخـــــــــير ، لقد عرفت كيف تساندينى ، لقد كنت في أمسّ الحاجة إلى هذه المساندة ، أشكرك يا ياسمين ، وسأدعو الله أن يسندك في غيابي وفي كلّ زمان ومكان .

و أخذت تروي لي قصّة ارتدائك الحجاب ، و أنّك إرتــديتِه لأجل الوقوف معي في محنتي، وأنّ الخوف القابع في أعماقك ما زال موجوداً ؛ لكنّ قدرتك على السّيطرة عليه تزداد شيئاً فشيئاً .

انتهت الزّيارة و افترقنا وعيني لا تفارق حجابك ، لقد كان مشهد الحجاب عاتياً وبارداً أطفأ نار معاناتي المشتعلة خلف القضبان ، ومشيت نحو المسجد لأجلس وخيالي يتلذّذ بصورة حجابك ، لم يوقظني من شرودي إلاّ شريكي في السّرير وهو يطلب منّي ديناراً و أقسم لي أن يقدّم لي مقابل الدينار هديّة ثمينة ، أعطيته على الفور مع قناعتي أنه لن يهديني شيئاً ، وفي المساء بعد أن جمعنا المغرب و العشاء ، جلست على سريري أذكر الله عزّ وجل و أسبّحه ، فخاطبني شريكي في السّرير :

*- لقد وعدتك بهديّة ثمينة .

أشرت برأسي بنعم ، فأخرج من تحت الفرشة مصحفاً متوسط الحجم وقدّمه لي ، فأخذته بلهفه وأخذت أقلّب صفحاته ، فقال لي :

*- هذا المصحف تركه لي رجل كبير السّن دخل السّجن بسب كسره لسنّ شابّ سبّ الله جلّ جلاله وسط الشّارع العام على مسامع المارّة ، لقد كنت أساعده في كثير من شؤونه .

:- أنت ما هي تهمتك؟

*- تهمتي هي سرقة المواشي ، أنا أمارس السّرقة منذ ثلاثين سنّة تقريباً ، مع أنّ عمري خمس وأربعون سنة ، وقد سجنت خلال الثّلاثين سنة سبع سنوات متفرّقات .

:- ألم تفكر خلال الثّلاثين سنة في التوبة؟

*- في كل مرّة أسجن فيها أقرّر التّوبة ، ولكن ما أن أخرج ، وأبدأ بالعمل لتحصيل قوت أبنائي ، حتّى تبدأ خواطر متعة الحصول على المال الكثير بسرعة تملأ رأسي ، و خلال عدّة شهور تتآكل التّوبة في داخلي ، وأنسى آلام السّجن وأعود للسّرقة ، أعرف سارقاً محترفاً سُجن معي عزم على التّوبة فلما خرج قطع يده .

*- قطع يده بنفسه؟

- نعم قطع يده بيده الأخرى، أنّ هذا هو الحلّ الوحيد ، يا ليتهم قطعوا يدي منذ ثلاثين سنة ، لاختصروا عليّ كلّ سنوات الضّياع ، هل تعلم أن تسعين بالمئة من المتّهمين بالسّرقة في السّجن هم أصحاب سوابق مارسوا السّرقة مرّات ومرّات وبعد انقضاء مدّة محكوميّتهم يعودون أكثر احترافاً .

فاجئني كلام هذا الرّجل رغم تصديقي له و فكّرت فيه كثيراً ، وقلت لنفسي إنّ الله وهو الخبير بعباده وضع علاجاً للسّرقة وهو قطع اليد لذلك لا يمكن أن يُقضى على جريمة السّرقة بغير العلاج الذي وضعه من خلق النّفس البشريّة ، كان خالد عند حديثه عن فضل

تحكيم الشّريعة يستشهد كثيراً بحديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : (حدّ يعمل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً) فعندما أسمعه يستشهد به أتساءل عن علاقة الحدود بإنتاج المال ، يبدو أنّ هذا السّارق استطاع أن يجيبني بوضوح على تساؤلي .

ثم أخذ يقصّ عليّ بعض حكايات السّرقات المميزة في حياته ، حتّى وصل لقصّة رجل أعجبه إصراره وعناده ، و رغم ذلك سرق سيّارته بكلّ ما فيها و باعها لمن يشترون السّيارات المسروقة و يحوّلونها إلى قطع غيار ، قال : و هو مندمج برواية القصّة : ذهبنا لنسرق الأغنام وإذا برجل ينزل من سيّارته ويتربّص بظبي و يصطاده من أوّل طلقة ، و عندما ذهب إلى صيده ليحضره، رأى ظبياً آخر على قمّة الجبل ، فأصابه بسرعة تثير العجب ، فانقلب الظّبي إلى الجهة الأخرى من الجبل ، فصعد ليحضره وبالفعل نزل إلى الجهة المقابلة وصعد به ولكنّه تزحلق و وقع الظّبي منه ، وبقي يتدحرج على السّفح المقابل للجبل حتّى وصل إلى قاعه، أسرعت وصديقي على الفور إلى السّيّارة فوجدنا مفتاح السّيّارة فيها ، و وجدنا هاتفه الجوّال ، قُدت السّيّارة و تبعني صديقي بسيّارته، ثمّ رميت شريحة الخلويّ على الفور ، وصلنا العاصمة عمّان و بعناها

لتاجر يشتري السّيّارات المسروقة، ثم نزلنا إلى وسط البلد في شارع سقف السّيل وبعنا الخلويّ ، لقد حالفنا الحظّ بشكل غير عاديّ .

لقد كنت أبتسم أثناء رواية القصّة يا ياسمين أتعلمين لماذا؟ لأنّ هذا الرّجل هو أنا و هذه السّيّارة هي سيّارتي ، لم أخبره بشيء أبداً ، و لكنّي فتحت المصحف وأخذت أقرأ فيه بهدوء وصمت.

6

بعد أيّام قليلة من زيارتك يا ياسمين نُقِلْتُ إلى مهجع الإسلاميّين ، فاستقبِلتُ بحرارة من الجميع رغم أنّهم لا يعرفونني ولم يروني في حياتهم من قبل ، كما أصبح لي سرير خاصّ بي ، و صلّينا المغرب دونما جمع ... الحمد لله، أنا الآن لست مضطراً إلى مخالفة ما أقتنع به من أحكام شرعية، و مع أنّي انتقلت من سجن إلى سجن ، فقد شعرت بما يشبه الإفراج ، ذكّرني هذا الشّعور بأنواع الاستبداد في عالمنا العربيّ ، فكلّ الشّعوب تعيش في سجون تتفاضل بينها في مجال الفسحة للسّجين ولكنّها تبقى سجونا، كما وجدت بينهم دفئا كنت قد فقدته في المهاجع السّابقة، و شعرت بالمؤانسة بعد الوحدة ، لقد جذبوني إليهم بقوّة شديدة ، كما كانت عندي في تلك الظّروف القابليّة الشّديدة لقوّة جذبهم ، فمهما كان المرء صلباً لا يستطيع أن يقاوم الماء البارد الحلال في الصّحراء الحارقة ، و مهما ارتفعت حرارة المقاومة واشتد عودها فهي لا تعني الكثير إذا كنت وحيداً ، وتبتلعك الجماعة بسهولة بعد الشّعور القاسي بالوحدة ، ودفء الجماعة يغرقك لذّةً لا تقاوم بعد الإحساس ببرد الوحدة القارص والناخر في العظام .

وفي المساء بعد أن صلّينا المغرب بقليل ، جاء رجال الأمن وطلبوا منّا جميعا خلع ملابسنا باستثناء السّروال الدّاخلي ، فنفّذنا الأمر

وخلعنا ملابسنا وهي جميعها بدلات رياضيّة ، اشتراها لنا أهلنا من الخارج . ثم قام رجال الأمن بتفتيش الملابس وجميع أرجاء المهجع ونحن واقفون بالسّروال الداخلي وبعد التّفتيش، ارتدينا ملابسنا وخرجنا من المهجع في طابور لعدّنا ، وقف الشّرطيّ على باب المهجع و كلّما عدّ واحدا منّا ضربه على كتفه . تتكرّر عمليّة خلع الملابس والتّفتيش مرّتين في الأسبوع أمّا العدّ فكلّ يوم ، جميعنا هنا يشعرون بالإهانة الشّديدة من هذه الأعمال ، لكن ما باليد حيلة .

مضت الأيّام ، و زادت معرفتي وتعلّقي بالسّجناء الإسلاميّين البالغ عددهم واحدا وعشرين ، ثمانية منهم شباب في العشرينات من العمر ، متهمون بالتّخطيط لحرق مصنع لليهود الإسرائليين يعمل على الأرض الأردنيّة، و معهم شابّ تاسع مازال فارّاً من الشّرطة ، وهم لا ينتمون لجماعة ولا يحملون فكراً مختلفاً عن عامّة النّاس فهم شريحة تمثّل الشّباب الغيور على دينه دون الانتماء لحركة أو فكر معين ، و عثمان أحد هؤلاء الثّمانية و هو أميرهم ، و أوسعهم صدراً، و أعلمهم بالمسائل الشرعيّة ، باسم المحيّا، في كلّ يوم بعد صلاة العشاء يقرأ في دفتر جميل مجلد بالورق المقوّى الأسود ، و يعطي درساً يومي الأحد والأربعاء بعد صلاة المغرب ، تتمحور دروسه حول ثلاثة مواضيع : وجوب تحكيم الشّريعة ، والخير العظيم نتيجة تطبيقها وعن الجهاد وفضله وعظم أجره ، وعن واقع

المسلمين المؤلم وأنّ النّصر قادم لا محالة ، و في أحد دروسه كان يشرح حديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : (لتُنقضنّ عرى الإسلام عروة عروة ، فكلّما انتقضت عروة تشبّث النّاس بالّتي تليها فأوّلهنّ نقضاً الحكم وآخرهنّ الصّلاة) وتكلّم في شرح الحديث كلاماً طيباً وعميقاً ، إلاّ أنّه اعتبر من يقوم بنقض عرى الإيمان هي الأمّة والشّعوب ، و بعد الدّرس طلبت منه التّعليق فأذن لي بكلّ سرور فقلت له والجميع يسمع :

*– إنّ الّذي ينقض عرى الإسلام ليست الأمّة بل أعداؤها ، إذ أنّ الأمّة تقاوم هذا النّقض ، و في الحديث ما يشير إلى ذلك فقوله صلّى الله عليه و سلّم (فكلّما انتقضت عروة تشبث النّاس بالّتي تليها) فالأمّة تتشبّث بعرى الإيمان وتقاوم نقضها ، وما يؤكد ذلك تصاعد الصّحوة الإسلاميّة دون تراجع ، فمشكلة تحكيم الشّريعة ليست مع الأمّة إنّما مع الحكّام المستبدين والقوى الكبرى المهيمنة علينا .

رد عثمان بمنتهى الادب :

– الحقيقة أن كلامك صحيح فكلمة تشبّث في الحديث تدلّ على ما تقول .

جاء وقت العشاء فصلّينا جماعة، ثمّ ذهب كلّ واحد إلى سريره، وقبل منتصف اللّيل بقليل بعد أن نام أغلب الشّباب جائني عثمان فأنا وهو آخر من ينام ، فأنا أمكث أقرأ القرآن حتّى منتصف اللّيل

وعثمان يغزوه الأرق بسبب ضوء الغرفة ، فالمهجع يبقى مضاءاً طوال اللّيل ،جلس وهمس لي :

*- أنا أتيتك ناصحاً ، أرجوك أن لا تظهر أي اختلاف في الرأي بينك وبين أحدٍ من السّجناء، لأنّ الاختلاف سيتحول بشكل سريع إلى عداوة والعداوة داخل أسوار السّجن عذاب قد لا تستطيع تحمّله .

- أيعقل ما تقول ، كلّ من في المهجع مسجون لأجل الله ، إنّهم أشخاص رائعين وكبار.

*- نعم هم رائعون و كبار ، و لكنّ مشكلة الاختلاف في الرأي ليست مشكلة العاملين للإسلام ، بل هي مشكلة الأمّة بأسرها ، والسّبب هي الأنظمة المستبدّة الّتي حكمتنا ، فهي تُكرِهُـنا على القبول بها ، وعلى منهج مناقض لحكم الإسلام ، هذا الاستبداد والإكراه على الأشخاص والقوانين ، أثّر فينا على مدى أجيال ، غادر عثمان محاولاً النّوم رغم الإضاءة ، وجال في خاطري كلامه و ملت إلى موافقته، فالاستبداد يمنعنا من تنمية خلق احترام الاختلاف بيننا .

وبعد عدّة أيّام قبيل العصر استيقظت من قيلولتي على أصوات مرتفعة ، نظرت وإذا بالشّباب الثّماني يتحلّقون حول شابّ في نهاية العشرينات من عمره كنيته أبو طلحة ، كان الشابّ التّاسع الذي

كان فارّاً من الشّرطة ،اقتربت منهم فلّما رآني عثمان قرّبني من أبي طلحة وعرّفني عليه وأخبره مجاملاً لي :

*- أبو ياسمين كبيرنا وشيخنا ، تهمته مجرّد كلمات و آراء فقط .

فقال أبو طلحة مستغرباً ومازحاً :

*- آراء وكلمات فقط ، الحمد لله نحن لا نكثر من الكلمات. ثمّ ضحك وضحك الجميع و ضحكت معهم، أوّل ما نظرت إلى أبي طلحة رأيت فيه كارزما القائد ، إنّ كلّ ما يلزم القائد لديه ، جلس الجميع و أخرج الشّباب كلّ ما لديهم من مأكولات اشتروها من بقالة السّجن كانوا قد ادّخروها لوقت الحاجة أو للتّسلية أحيانا ، وقاموا بتوزيعها على باقي السّجناء ثم أقاموا احتفالاً تلوا فيه معاً قول الله تعالى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولّوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيرا من النّاس لفاسقون . أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون. يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين) لقد كان لتلاوتهم معاً أثر كبير في قلبي رغم أنّي قرأت هذه الآيات كثيراً، ثم أنشدوا معا بصوت واحد متجانس أنشودة :

لبّيك إسلام البطولة كلّنا نفدي الحمى

لبّيك و اجعل من جماجمنا لعزّك سُلّما

لبّيك إن عطش اللّوا سكب الشّباب له الدّما

لبّيك........ لبّيك ....لبّيك

و استمرّوا بالنّشيد حتّى نهايتها.

وبعد الأنشودة صاح صبري ومصطفى معاً :

*- تكبير ...الله أكبر ولله الحمد .

ردّد خلفهم الجميع بصوت واحد ، وصبري ومصطفى كانا قبل أن يلتزما دينيّاً من البلطجيّة أصحاب المشاجرات الكثيرة وهما يعرفان كثيرا من السّجناءالجنائيّين وهما على دراية بكلّ ما يحدث في السّجن عند الجنائيّين .

اعتدل عثمان في جلسته وألقى قصيدة شعر عن البذل والتّضحية في سبيل الإسلام و بعد نهاية القصيدة نظر عثمان إلى أبي طلحة وقال :

*- الكلمة لك الآن .

تكلّم أبو طلحة كلاماً موجزاً مؤثرا للغاية عن العمل للإسلام والتّضحية في سبيله و استشهد بحديث صحيح سمعته لأوّل مرّة في حياتي ، و ما زلت أحفظه كاملاً وهو قوله صلّى الله عليه و سلّم : [لو أنّ رجلا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلِد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عزّ وجلّ ؛ لحقره يوم القيامة]

ثم ابتهل بالدّعاء :
اللّهمّ يسّر لنا حكماً بكتابك وسنّة رسولك ،
يعزّ فيه أهل طاعتك وترفع فيه رايتك
يا ربّ العالمين
وكلّنا نقول آمين .....آمين .
وبعد الدّعاء شرب أبو طلحة شيئا من كوب الماء الموجود أمامه وخاطب الجميع وعيناه على الشّباب الثماني :
*- والآن أنتم ، كيف هي أحوالكم هنا؟
أجابه عثمان و أخبره بما يتعرّضون له من خلع ملابسهم وعدّهم كالخراف، و قال متحسّراً :
*- لكن ماذا نقدر أن نفعل؟
أجابه أبو طلحة ببديهة كالبرق :
*- بل نستطيع أن نفعل الكثير ، لكن قولوا لي ، هل تريدون بقاء حالكم هذا تخلعون ملابسكم وتقفون بسراويلكم الداخليّة وتُعدّون كالخراف ؟ أم تريدون أن تعيشوا في عزّة وكرامة ؟
أجابه الجميع بلا تردّد باستثنائي ، أنّهم يريدون أن يعيشوا بعزّة وكرامة ، عندها رفع أبو طلحة صوته بكلمات اخترقت قلوبنا حماساً:

*– لن نعيش أيّ عزّة ولا أيّ كرامة ، بل كرامة وعزّة المسلم المجاهد ، و سنحصل عليها إذا كان عندنا الاستعداد لدفع ثمن لا سقف له .

ثمّ نظر إلى الجميع نظرات كالصّقر و صاح:

*– الثّمن مفتوح لا سقف له ، موافقون .

صاح الشّباب الثماني بصوت عالٍ والباقون بصوت منخفض قليلاً :

*– موافقون .

فنهض أبو طلحة ومدّ يده وقال:

*– إذنْ نتعاهد على ذلك .

رفع عثمان يده مانعاً الشّباب من وضع أيديهم على يد أبي طلحة وخاطب أبا طلحة :

*– قبل أن نتعاهد ، أنت أميرنا منذ هذه اللّحظة .

– أنا لن أكون الأمير ، بل أنت يا عثمان ستبقى الأمير .

*– بما أنّي الأمير فإنّي آمرك أن تصبح الأمير منذ هذه اللّحظة .

و وضع عثمان يده على يد أبي طلحة ، و تتابعت الأيدي فوق أيديهم وأنا أنظر مستغرباً، و إذا بعثمان يقبض يدي ويضعها فوق الأيادي .

وفي اليوم التّالي قُرابة السّاعة العاشرة صباحاً جمع أبو طلحة جميع أفراد المهجع وقال لهم :

*- إنّنا لا نستطيع التّحرك لنيل عزّتنا وكرامتنا إلاّ إذا حصلنا على خلويّ لنستطيع الاتصال بالخارج ، من أهلنا و وسائل إعلام ومنظّمات حقوق الإنسان ، حتّى نستطيع الضّغط على إدارة السّجن من الدّاخل والخارج .

فقال له عثمان : من إين لنا بثمن الخلويّ؟ إنّ الخلويّ الذي يباع في الخارج بعشرين دينارا يباع داخل السّجن بمئتي دينار.

قال أبو طلحة بعزيمة صادقة .

*- حتّى لو بألف سنشتريه ، فنحن من غير مساندة الخارج سنُسْحَق وسنَفشل والفشل سيزيدنا ذلاًّ وإهانة .

ضرب أبو طلحة بيده على الأرض وفرش بطانيّة ودعا الجميع للتّبرع لشراء الخلويّ فتبرّع الجميع بكلّ ما يملكون لم يُبقِ أحد منهم شيئاً إلا أنا فلم أتبرّع وبقيت واقفاً ، جمع أبو طلحة المبلغ فوجده أربعة وخمسين ديناراً، فتنهّد متحسّراً وقال :

*- هذا المبلغ لا يفعل شيئا ، نحتاج إلى عدّة أسابيع لجمع مبلغ مئتي دينار .فاقتربت منه، و وضعت أمامه مئتي دينار وقلت له :

*- أخبرني إن حتجت أكثر .

نظر إليّ الجميع بمشاعر فيّاضة بالامتنان وشكروني على ذلك ، وعلى الفور أعطى أبو طلحة المبلغ لمصطفى وصبري ، وطلب منهما إحضار الخلويّ اليوم ، و بعد توزيع طعام الغداء أحضر

صبري ومصطفى خلويّاً متواضعاً فيه خط مشحون بدينار تقريباً ، دفعوا ثمنه مئتي دينار ، و هو لا يساوي خارج السّجن عشرة دنانير، طلب أبو طلحة من الجميع الحصول على أرقام آبائهم أو إخوانهم عند أوّل زيارة، و بالفعل حصل الجميع على الأرقام و خُزِّنتْ على الخلويّ . مرّ يومان على شراء الخلويّ و جاء الأمن للتفتيش كالعادة، فرفض الجميع خلع ملابسهم، حاول الأمن تمزيق ملابسنا، فقاوم الجميع و دخلوا المهجع وغلّقوا الباب بالأسرّة وتعالت صيحات التكبير دون توقف، و كان الأمن قد مزّق بعضا من ملابسنا قبل دخولنا المهجع، حضرت إدارة السّجن فخاطبهم أبو طلحة بصوته المؤثّر :

*- يجب أن تعلموا ، أنّنا لن نخلع ملابسنا إلاّ ونحن جثث هامدة ، ونحن نعلمُكم أنّنا مضربون عن الطّعام منذ هذه اللّحظة و حتّى الموت أو التوقف عن إهانتنا وإذلالنا.

وبعد مشادّات بين الطّرفين و تهديد الأمن باقتحام المهجع وتهديد أبو طلحة بالمقاومة حتّى الموت ، اتّفق الطّرفان على التّفتيش دون خلع الملابس .

أحسّ الجميع بمشاعر النّصر كما زادت ثقة الجميع بأبي طلحة وبأنفسهم، وأخذت مشاعر الانتصار والثّقة بالنّفس تدق بعنف جدار اليأس وتضرب بقوّة مشاعر قلّة الحيلة ، كما زاد تماسك الجميع ، و

ازدادت سماكة حبال الود والتّعاطف بيننا ، الحقيقة يا ياسمين لم أكن أتخيّل مدى فاعليّة مشاعر النّجاح والانتصار على حياة البشر ، فلا تستطيع أمّة من الأمم أن تندفع إلى الأمام دونها ، ولا تستطيع أن تعيش مرفوعة الرّأس دونها. أمّا أنا فتساءلت بحيرة عميقة ،هل يمكن أن توجد عزّة و كرامة في وسط السّجن الذي هو ذاته ذلّ وإهانة؟! هل يمكن أن يتّشكل من لبنات الإذلال و التّركيع بناء من العزّة والكرامة؟! هل يمكن أن يعيش الإنسان مرفوع الرّأس وهو يسير في نفق من الذّلّ والهوان؟! هذا التّساؤل كان أبو طلحة يحاول الإجابة عليه عمليّاً بفطرته العملاقة .

طلب أبو طلحة من الجميع الاتّصال بأهليهم و حثّهم على الذّهاب إلى منظّمات حقوق الإنسان و لجنة الحريّات في مجمع النّقابات المهنيّة و وسائل الإعلام الكبيرة ، ليشرحوا لهم معاناتنا وتعرّضنا للمعاملة السّيّئة داخل السّجن، وبعد بضعة أيّام تأكّد أبو طلحة أنّ قضيّتنا وصلت إلى الخارج فبدأ الخطوة التّالية ، فعندما خرجنا كي نُعدّ اصطف أبو طلحة الخامس وصبري العاشر ومصطفى الخامس عشر ، فبدأ الشّرطيّ كعادته بعدّنا مع ضربة على الكتف ، و عندما ضرب كتف أبي طلحة توقّف أبو طلحة و جحره وخاطبه :

*- أرجوك أن تقوم بالعدّ دون ضرب .

لكنّ الشّرطيّ عاجله بدفعه إلى الدّاخل بقوّة ، وكرّر صبري ومصطفى فعل أبي طلحة، وبعد أيّام طلب من الجميع دون استثناء فعل ما فعله هو و صبري و مصطفى و استمرّوا على ذلك حتّى أحسّ أبو طلحة أنّ الضّغط الخارجيّ بدأ يؤثّر و أحسّ أيضاً أنّ ضربة الشّرطي أصبحت ضعيفة على الأكتاف ، في تلك اللّحظات تقدّم أبو طلحة خطوة إلى الأمام و طلب من الجميع أن يمسكوا يد الشّرطيّ عند قيامه بالضّرب على الكتف ، وحدث ما اتُّفقَ عليه فحصل احتكاك بين الشّباب والشّرطيّ نتج عنه وصول تعزيزات من الأمن ، فدخل الجميع إلى المهجع و أعلن أبو طلحة إضراباً مفتوحاً عن الطّعام و أنّهم لن يخرجوا بعد اليوم للعدّ ، و بقينا مضربين عن الطّعام و معتصمين داخل المهجع أسبوعا ، حتّى ازداد الضّغط الخارجيّ و اضطرّت إدارة السّجن إلى قبول العد و نحن داخل المهجع واقفون بجانب أسرّتنا ، و أصبحنا نُعدُّ دونما طابور أو ضرب على الكتف ، هذا النّجاح زاد من ثقة الجميع بأنفسهم، و أنّهم قادرون أن يفعلوا شيئا رغم أنّهم في الأسر، و أكثر ما لفت نظري في تلك الأيّام غياب الهمّ والغمّ والحزن ، و هذا ذكّرني بحديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: (جاهدوا في سبيل الله فإنّ الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنّة ينجي الله تبارك وتعالى به من الهمّ والغمّ) ، و قد فهمت من الحديث أنّ النّضال والكفاح لأجل

هدف يرضاه الله فإنّه يجلي و يجلخ الحزن والهمّ والغمّ ، فمشاعر الهمّ والحزن تجعل النّفوس ثقيلة و دائرةً في فلك ذاتها وملقيةً على شموع الأمل ماءً بارداً فلا بدّ لمن يريد أن يمشي إلى الأمام و يرى الأشياء بوضوح أن يحافظ على استمرار الكفاح حتّى لو كان الكفاح من أجل بقاء الكفاح ، لقد تولّدت عندي قناعة من تجربتي مع أبي طلحة أنّك تستطيع أن تسبح مرفوع الرّأس وسط بحر من الذّلّ مع أن رفع الرّأس أمرٌ شكليّ لا يغيّر من طبيعة البحر شيئا ؛ لكنّه هامّ حتّى لا نغرق ، و إشعال أعواد الثّقاب وسط عتمة الهوان الحالكة لا يبدّد شيئا من الظّلام إلاّ للحظات و لكنّ هذه اللّحظات ضروريّة حتّى لا نصاب بالعمى ، فلا نرى الضّياء حتّى لو جاء ساطعاً .

و في تلك الفترة جاءنا شيخ كبير السّن اسمه أبو حسّان ، في أواخر الخمسينات من عمره أوقفه المحافظ بسبب خطبة جمعة خطبها دون إذن الحكومة ، أبو حسّان من أبناء الحركة الإسلاميّة وبحكم سنّه ظلّ قريبا منّي ، و حاولت أن أفهم منه أكثر عن أسباب الهجمة الّتي تقودها الأجهزة الأمنيّة على الحركة ، فاكتشفت من حديثه أنّني أمام رجل عميق في تفكيره ، ومن الأمور الّتي وضّحها:

*-الحركة الإسلاميّة منسجمة مع هويّة الشّعب وعقيدته وإيمانه ، ولها الرّصيد الأكبر من الشّعبيّة ، وهي القوّة السّياسية الوحيدة

القادرة على الحفاظ على مكوِّنات الشّعب، وردم الهوّة وإقامة الجسور بين الانقسام الشّعبيّ ، هذه الميزات أخافت السّلطة الحاكمة فالقوّة السّياسيّة الموجودة بديل مقبول داخليّاً .

اعترضتُ على حديثه بقولي :

*- هناك حركات إسلاميّة في الأردن قادرة على الحفاظ على النّسيج الاجتماعيّ و وحدة الشّعب .

- بالطّبع ولكن ما أقصده هو أنّ الحركة الإسلاميّة هي الوحيدة من الحركات الإسلاميّة الّتي تعمل في مؤسّسات الدّولة والمجتمع ، و الدّولة الحديثة - كما تعرف - دولة مؤسّسات.

صدّقني إنّ أكثر ما يرعب السّلطة أن الحركة الإسلاميّة قاعدة من قواعد التّرابط الشّعبيّ وباعث على الاستقرار ومُدعِّمة للأخوّة الإسلاميّة بين الشّعب؛ و لذلك فقد شنّت السّلطة حرباً ابتدأت بتجفيف منابع الحركة ، فطُرِدَتْ تدريجيّا من المساجد ثم غُيِّر قانون الانتخاب إلى قانون الصّوت الواحد لتحجيمها، ثم ضُرِبَت اقتصاديّاً باغتصاب جمعيّة المركز الإسلاميّ منها ، و بوضعِ السّلطةِ يدَها عليها ، ثمّ زُوِّرَت الانتخابات البلديّة والنّيابيّة ، و شُنَّت عليها حملة إعلاميّة استُعملت فيها كلّ الأسلحة، و أقِرَّت مجموعة قوانين طوارئ منها منع الحديث في المساجد إلاّ بإذن السّلطة ، و منع التجمّعات والمسيرات والنّدوات والمهرجانات إلاّ بإذن السّلطة

أيضاً، وها أنا أمامك داخل السّجن لإعطائي خطبة الجمعة دون إذن السّلطة . ثمّ ضرب على فخذيه وقال:

*-الأخطر من ذلك كلّه هو استعمال السّلطة للعشيرة والانقسام الشّعبيّ للإجهاز على الحركة أو نزع قواها لتصبح فاقدة التّأثير، فقد صوّرت السّلطة للعشيرة أنّ الحركة الإسلاميّة ضدّ مصالحها وأنّها منافس سياسيّ لها ، و أنّها عشيرة كبرى تريد أن تأكل البلد وحدها و وُظِّف الانقسام أيضاً ضدّ الحركة لتكون في نظر الأردنيّي الأصل أنّها ممثّل للأردنيّين من أصل فلسطينيّ، و هذا الواقع المأساويّ من أهدافه إعطاء رسالة للقوى الكبرى أنّ الحركة الإسلاميّة هي عامل من عوامل الانقسام ، و غير قادرة على الحفاظ على النّسيج الشّعبيّ و الاجتماعيّ .

عندما جاء وقت الصّلاة ، و نهضنا إلى مكان الصّلاة مسك يدي وقال :

*- أنا أحد أبناء العشائر الأردنيّة ، و متألّم من حالة التّشرذم والانقسام في المجتمع ، أحسّ أن الجميع خاسر كما أنّ أجواء التّشرذم و الانقسام أصبحت لا تطاق .

بدأ أبو حسان بكتابة خطابات موقّعة من الجميع إلى مدير السّجن ، و مدير دائرة السّجون ، و وزارة الدّاخليّة؛ ليسمحوا لنا أن نطلب شراء بعض احتياجاتنا من خارج السّجن مرّة كلّ أسبوع. ربّما للهجة

الخطابات الودّية و الأسباب المقنعة ؛ وافقوا على ذلك . بعدها بدأ أبو حسّان بشراء كلّ ما يلزم لعمل المخلّلات و خلّ التفاح ، وأصبح عندنا تشكيلة كبيرة من المخلّلات ، وكميّة أكبر من خل التفاح ، ثم أحضر أواني بلاستيكيّة و زرع فيها النعناع ، ثمّ أقنع ثلاثة من السّجناءالإسلاميّين بالتّقدم إلى امتحان الثانويّة العامّة ، أبو حسان لم يكن صداميّاً مع إدارة السّجن ، ممّا جعله نافعاً كثيرا لنا جميعاً و مخفّفا عنّا من ضغط السّجن ، بأسلوب مختلف عن أسلوب أبي طلحة...كان أسلوبا رائعا وسهلا و نافعا ، لم يقلّ نفعاً عن أسلوب أبي طلحة .

وبعد الإفراج عن أبي حسان بأسبوعين تقريباً ، جاءت زوجة عثمان وهي امرأة منقبّة لزيارة زوجها ، و في العادة فإنّ زوّار الإسلاميّين يعاملون معاملة حسنة وخصوصاً النّساء ، إلاّ أنّ أحد ضبّاط الأمن الوقائيّ الرّافض لإعطاء أيّ ميزة حصل عليها الإسلاميّون ، طلب من الشّرطة النسائيّة تفتيش زوجة عثمان تفتيشاً كاملاً ، و قامت الشّرطة النّسائيّة بتنفيذ الأمر وأدخلتها إلى غرفة التّفتيش، حيث جُرِّدت من ملابسها باستثناء الملابس الدّاخلية ، و بعد انتهاء التّفتيش ، خرجت زوجة عثمان بنقابها نحو شبك الزّيارة تبكي ،فاستقبلها زوجها باشتياقٍ ملتهب ، و ابتسامات عشق و فرحة نهاية الانتظار ، بينما استقبلته الزوجة المكلومة بدموع و صوت بكاء مكتسي

بالحشرجة ، فسألها حائرا عن سبب البكاء ، فأخبرته ما حدث ، فطلب منها أن تنظر خلفها و تحاول أن تتعرّف على الضّابط ، نظرت خلفها و أشارت إليه بطرف خفيّ فعرفه عثمان ، لقد كان الضّابط لؤي ، تماما كما توقّع ، غيَّر عثمان الموضوع و سألها عن ابنهما حمزة ، طلب منها أن تأتي به في المرة المقبلة، انتهت الزّيارة ، و عاد عثمان إلى المهجع وهو يفيض حزنا و قهرا و الأقسى من ذلك إحساسه بالعجز والانكسار أمام زوجته ، كلّما فكّر بما يستطيع فعله يصل إلى أنّه غير قادر على فعل أيّ شيء دون دفع ثمن باهظ ، هو ببساطة الخسارة القاسية لكل نزلاء المهجع وهذه الحسابات تزيد من غليانه ومعاناته .

صعد عثمان على سريره و وضع الوسادة على رأسه ، و لمّا حانت صلاة العصر تجمّع الجميع لإداء الصّلاة ، و بقي عثمان في سريره ، فذهب أبو طلحة لإيقاظه ، رفع أبو طلحة الوسادة فوجده يبكي بصمت ، صدم أبو طلحة من رؤية دموع عثمان ، علم أبو طلحة أنّ هذه الدّموع لم تنزل إلا لشيء عظيم ، فعثمان صديق عمره وشيخه و هي أوّل مرّة يراه فيها يبكي ، فعثمان صلب شحيح الدّموع ، فسأل أبو طلحة شيخه وخليله بدهشة عن سبب دموعه وعثمان يتهرّب من الإجابة متعلّلا بأنّها مسألة خاصة ، تركه أبو طلحة و بعد أن صلّينا العصر اختلى أبو طلحة بصديق عمره ، و أصرّ عليه أن يخبره عن

سرّ حزنه ، و تحت ضغط أبو طلحة و إلحاحه لم يجد عثمان مفرّا من مصارحته بالحقيقة ، فقصّ عليه ما حدث مع زوجته وختم عثمان كلامه بقوله:

*- ولكن يا أبا طلحة ، ماذا نستطيع أن نفعل؟

وكعادته أجاب أبو طلحة كالبرق و ضرب السّرير بعنف وحزم .

*- بل نستطيع ، وسوف ترى أنّنا نستطيع أن نفعل الكثير ، الكثير جداً .

نادى على مصطفى وصبري ، و قصّ عليهما خبر ما جرى لزوجة عثمان ، و طلب منهما بكل حزم وعزم وغضب:

*- اذهبا إلى الضّابط لؤي ،و أخبراه أنّ لديكما معلومات هامّة يجب أن يسمعها على انفراد وعندما تنفردان به اكسرا إحدى عظامه وقولا له " إنّ من يكسر خاطر أعراض المجاهدين ، تُكسر عظامه " فإنّ كُسرت أحدى عظامه فـــصيحا(الله أكبر ولله الحمد) و إن لم تستطيعا فعل ذلك فصيحا (الله أكبر) فقط.

هزّ كلّ منهما رأسه دون أيّ جدال أو اعتراض، رغم علمهما أنّ جزاء من يعتدي جسديّاً على ضابط هو الشّبح والضّرب بكيبل من النّحاس يفوق تحمّل البشر، و مع علمهما بكلّ ذلك ذهبا لتنفيذ الاتفاق ، لقد كنت خائفاً في تلك اللّحظات، وحزيناً أكثر وأنا أتأمّل الشّباب الجالسين مترقبين ماذا سيجري ، ظللت أتأمّلهم فهم في وسط السّجن

، يكفّنهم الأسر وهم أحياء ، لم يستطيعوا العيش تحت الحكم بغير ما أنزل الله ، لم يستطيعوا أن يتجرّعوا شريعة قبيحة مرّة مليئة بالأشواك ، و لم يطيقوا رؤية شريعة الله تُقذف خلف قضبان السّجون السّحيقة ، لم يتحملوا رؤية حكم الإسلام يجرّ على وجهه ليل نهار ، أراهم يمشون عراة وثلج الاستبداد يتساقط عليهم ، أراهم يتقلّبون على صحراء حارقة من القوانين العرفيّة و أسلاك موالاة أعداء الإسلام الشّائكة تعصر كلّ ذرّة من لحمهم ، و في وسط التّرقّب والصّمت سمعنا صوت تكبير مصطفى وصبري (الله أكبر ولله الحمد) ، لقد قاما بكسر أحد أضلاع صدر الضابط لؤي ، وتجمّع الأمن وقاموا بشبحهما لجلدهما بكوابل النّحاس، و كالبرق هجم الشّباب السّبعة و اختطفوا شرطيّين و أدخلوهما إلى المهجع وخرج أبو طلحة وصاح بأعلى صوته الذي اخترق الجدران والأبواب وكلّ القلوب :

*- إن ضربتموهما ضربناهما .....وإن جلدتموهما جلدناهما ..... و إن قتلتموهما قتلناهما ... و الحرمات قصاص ، و أقول لكم هذا جزاء من يكسر خواطر أعراض المجاهدين ، هذا جزاءه اليوم وغداً ما دام فينا قلب ينبض و نفَس يشهق ،هذا جزاؤه في السّجن وخارج السّجن و في حضن أمّه .

سمعت إدارة السّجن كلمات أبي طلحة في حادثة غير مسبوقة في تاريخ السّجون الأردنيّة ، فسأل مدير السّجن عن علاقة الضابط لؤي بكسر خاطر أعراضهم ، فأخبرته الشّرطة النّسائيّة بما حدث فنظر إلى من حوله وقال:

*–نحن لا نفــتّــش زوّار الإسلاميّين وخصوصاً النّساء ، ألم أعط تعليماتٍ أنّي لا أريد أيّ استفزاز لهم .

و بقينا في المهجع نترقّب بخوف و حذر ماذا سيجري، وجاء وقت المغرب و صلّى الشّرطيّان معنا وقبيل العشاء جاء الأمن برفقة مصطفى وصبري ، و لمّا دخلا المهجع غادر الشّرطيّان و جلس مصطفى وصبري يقصّان علينا ما فعلاه، وأبو طلحة يقصّ عليهما كيف اختُطِف الشرطيّان ، و بعد أن تفرّق الجميع على أسرّتهم اختليت بعثمان وأبي طلحة وسألت أبي طلحة وعيني على يد عثمان ممسكا الدّفتر الأسود الجميل الصّغير الذي يقرأ فيه كل مساء :

*– ماذا كنت ستفعل لو أصرّ الأمن على اقتحام المهجع و دخلوه فعلاً .

:–لا شيء كنت سأسلّم الشرطيّين لهما .

*– بهذه البساطة .

:– نعم، بتلك البساطة . الحنكة أن تستطيع إقناع من في مقابلك أنّ تضحيتك بلا حدود ، في هذه الحالة هو لا يستطيع أن يقوم بحسابات

صحيحة ، الشّيء الذي تعرف ثمنه تستطيع أن تحطّمه إذا امتلكت الثّمن ،أمّا ما لا تعرف ثمنه فإنّك ستفكّر كثيراً قبل تحطيمه؛ حتّى لو امتلكت الكثير الكثير من القوّة والمال ، عندما تخوض صراعا يا أبا ياسمين إيّاك أن تجعل خصمك يعرف حدودك أو يعرف ثمنك ، فإن عرف ثمنك فإنّك مهما فعلت ستبقى رخيصاً .

رغم مشاعر الانتصار والفرحة على الجميع إلاّ أنّي كنت أرى أنّ ما فعله أبو طلحة باختطاف الشّرطيّين كان خطأً ، بينما كان مصيبا في ردّ فعله على خلع الملابس و رفضه و مقاومته عدّنا كالأغنام فقد كان ردّا رائعاً لأنّها أعمال انتزعت منهم حقوقا وهذه الحقوق متّفق عليها عند الشّعب المسلم ، و تساندها جميع منظّمات حقوق الإنسان في الدّاخل والخارج ، أمّا ما حدث في حالة زوجة عثمان فأبو طلحة لم يطالب بحقّ الزائر للسّجن في معاملة تكفل الاحترام والكرامة بطريقة يسانده فيها الشّعب المسلم أو المنظّمات في المجتمع، بل قام بكسر ضلع الضّابط و اختطف أفرادا من الشّرطة وهذه الطّريقة من الصّعب أن يسانده فيها إلاّ القليل ، و رغم كلّ هذه القناعات فقد زاد إعجابي بأبي طلحة وحبّي له ، فهو رجل عسكريّ نادر، لديه فطرة عسكريّة عملاقة ، لديه القدرة على اتّخاذ القرار و وضع الخطّة خلال لحظات ، و حساباته في منتهى الدّقة ، يمتلك رؤية واضحة عند الشّروع بأيّ عمل ، كما أنّه يمتلك القدرة و الشّجاعة لتنفيذ

الخطّة الّتي يضعها . أبو طلحة يوهمك أنّه انتحاريّ مع أنّه حريص على البقاء لنفسه ولإخوانه – كما يحبّ أن يسمّيهم – و كلّ خطواته محسوبة ، يُشْعِرك و يُـــقْـــنعِك عند الاعتداء عليه أو على من معه أنّه مجنون لا يعي ما يفعل وأنّه مستعدّ أن يحرق السّجن بمن فيه ، مع أنّه في الحقيقة في منتهى العقل و الحكمة ، كثيراً ما كنت أنظر إلى أبي طلحة وأقول لنفسي:

*– من الخسارة أن يكون هذا العسكريّ العبقريّ الشّجاع داخل السّجن ، من الخسارة أن يكون هذا الأسد في قفص .

من الأشياء الجميلة الّتي حقّقها أبو طلحة أنّه استطاع إخراجنا من جوّ السّجن ، حتّى كدنا ننسى أنّنا داخل سجن كئيب ، و أن يبني نفوسنا ويرمّمها بعد أن بدأت بالتصدّع قبل مجيئه، صنع لنا قضية و خاض بنا معارك لأجلها ، هذه القضية هي مقاومة الانكسار أوالقابليّة للانكسار ، سألته يوماً :

*– لماذا تجعلنا دائماً في حالة تأهّب واستعداد دائم وكأنّنا في حرب مع أنّنا داخل جدران سجن؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة في غاية الجمال والذكاء :

*– يجب أن نبقى في حركة دائمة ، حتّى لو كانت حركتنا في المكان نفسه ، فالحركة بحدّ ذاتها هدف لأنّ الماء الرّاكد يفسد وتخرج رائحته ، الحركة تزيل الحزن و الاكتئاب، و تخفّف وساوس

الشّيطان، الحركة ضروريّة لنبقى في لياقة دائمة، و لا تتكلّس عظامنا ، فتأتي الفرصة للحركة فلا نستطيع التّقدّم ونبقى عاجزين عن الحركة رغم أنّ الطّريق مفتوح وميسر، أنا لا أخفي عليك ، وهذا السّرّ لك فقط ، في كلّ فترة لا بدّ لي من موضوع أحرّك الشّباب عليه ، مع تجنّب الفشل لأقصى حدّ، لأنّ الفشل يرجعنا إلى الوراء ، يا أبا ياسمين ... نحن لا نريد أن يدمّرنا السّجن تدميراً شاملاً ، سنعمل لنخرج من السّجن ونحن قادرون على السّير قدماً في الطّريق .

7

بدأت محاكمتي و خلال عشرة أيّام عُقِدت فيها أربع جلسات، حُكم علي بالسّجن مدّة سنة ، و سنة السّجن تعادل تسعة أشهر، مضى منهما سبعة وتسعون يوماً ، وبعد الحكم عليّ بأيّام جاءت ناهد لزيارتي ، وهي زيارتها الأولى، و رغم عتبي الشّديد عليها إلاّ أنّي سررت جدّاً بزيارتها ، أحسست في البداية بالإحراج وشيءٍ من الضّيق لمجيئها بملابس ضيّقة كاشفة شعرها ، فهي لم تغيّر من لباسها المعتاد شيئا ، لكنّ هذه المشاعر ذهبت سريعاً عندما سمعت صوتها ، لقد رأيت في وجهها و صوتها وعيونها اشتياقاً كبيراً لي، فهي فتاة واضحة جدّاً تقرأها بسهولة و سرعة كبيرة ، وخلال حديثي معها أظهرتُ لها أنّي أعيش حياة عاديّة لا فرق كبير بينها وبين الخارج ، و لا شيء يضايقني، و أثناء حديثي مع ناهد ، وقف صبري بجانبي ونظر إلينا وغادر سريعاً ، و ما لبث أن عاد بصحبة أبي طلحة ، و وقفا خلفي ، استأذنني أبو طلحة و خطف سمّاعة الهاتف من يدي بسرعة ، وأخذ يكلّم ناهد غاضّا بصره موضحا معاناتنا، و أخذ عليها العهد أن توصل هذه المعاناة إلى من تستطيع ، و قد أعطته ناهد العهد على ذلك، ثمّ غادرا، لقد دمّر أبو طلحة محاولتي إقناع ناهد أنّي مسرور وأعيش حياة عاديّة ، و لكن ربّ

ضارّة نافعة، فقد أثّر كلام أبي طلحة بناهد وجعلها تفي بعهدها وتشعر بمعاناة أبيها. بعد لحظات انتهت الزّيارة . لقد ظنّ صبري ناهد عاملةً في منظّمات حقوق الإنسان ، لذا ذهب وأخبر أبا طلحة بذلك ، و في المساء سألني أبوطلحة :

*- هل ستصدقنا تلك الفتاة الوعد؟

:- أنا متأكّد أنّها ستــفي بعهدها كاملاً .

*- ولماذا أنت متأكّد إلى هذه الدرجة؟

:- لأنّي رأيت فيها الصّدق .

*- نعم ، و أنا أحسست في صوتها الصّدق...

ذهبت إلى سريري وأنا في غاية السّرور برؤية ناهد ، و رغم أنّي لم أتكلّم معها كثيراً فقد أمتعني قرب قلبها منّي ، لقد دعوت لها كثيراً بالهداية والتوفيق في حياتها ، إنّها فتاة واضحة وطيّبة ولكنّها عنيدة وجموح ومعتزّة بذاتها جدّاً ، أكثر ما يخيفني عليها هو فشلها في زواجها ، فأمثالها من الفتيات يصعب على الرّجال استيعابهنّ، و مثيلاتها في الأغلب تنتهي حياتهنّ الزّوجيّة بالفراق ، كم دعوت لها في الثّلث الأخير من اللّيل دعاء أكرّره في كلّ مرّة ، أدعو مع شعور يتملّكني أنّ الله لن يردّني خائباً، كنت أدعو:

*- اللّهمّ إن أردت أن تكافئني على أيّام السّجن في سبيلك فاجعل مكافئتي في بنتي ناهد بأن تهديها وتيسّر لها زوجاً يحبّها و

يستوعبها ويحترمها و هو مسرور منها ، و ما ذلك عليك صعب يا الله يا صاحب القدرة بلا حدود .

وأنت يا ياسمين لقد دعوت لك بما لا يقلّ عن ذلك ، و لكنّي لم أكن أخشى عليك كما كنت أخشى على أختك ناهد لقد كنت دائما أدعو لك أن يسندك في كل زمان ومكان كما سندتيني .

وبعد شهر تقريباً حُكم على الشّباب الثّمانية ؛ حُكمَ على أبي طلحة وعثمان بالسّجن عشر سنوات، و صبري و مصطفى سبع سنوات والباقيين خمس سنوات لكلّ واحد منهم، لقد توقعوا أن يُحكموا من سنة إلى سنتين؛ لأنّهم لم يباشروا الحرق ولم يقتربوا من المصنع فقد ضُبطوا قبل موعد التّـــنـــفـــيذ بأيّام ، و رغم صدمة الدّهشة الّتي أصابتهم جميعاً إلاّ أنّهم غير نادمين و لا مكسورين، لقد استعدّوا لهذا اليوم القاسي ، و أقاموا في نفوسهم سوراً ضخماً من أحجار و رمال القيم الرّفيعة و البذل و التضحية والعيش لغير الذّات، أخطاؤهم كثيرة ، و لكنّهم يفيضون غيرة على الإسلام وأهله، اختلفت معهم كثيراً في آرائهم ولكنّي لا أملك إلاّ أن أعشقهم في الله ، تأمّلتهم مراراً وتكراراً ، قبل الحكم عليهم و بعده، فوجدت شباباً صابرين ، مؤمنين بعمق بقضيتهم ، ذوي إحساس مرهف بقضية تحكيم الشّريعة و اغتصاب عرشها ، و في أكثر من مرّة سمعت أبا طلحة وهو يخاطب الجميع :

*– لسنا من صنع المشكلة ، نحن ردّة فعل على جريمة ، نحن ردّة فعل على الغلوّ والتّطرّف في موالاة أعداء الله ، نحن ردّة فعل على التمادي في انتهاك حرمات الله ، نحن ردّة فعل على الإكراه والإجبار والغصب الذي عشّش في عظامنا ، الفرق بيننا وبين كثير من النّاس أنّنا أردنا أن نثأر للشّريعة و أهلها أمّا هم فحرارة الثّأر في قلوبهم فاترة .

الحقيقة ليس أمامك خيار إلاّ أن تحبّهم، فعندما ترى الشّريعة الّتي تحبّها وتعشقها وتقدّسها تهان إهانة بالغة ، لا تملك إلا أن تحبّهم ، عندما تسمع صرخات الإسلام وهو مكبّل بالأغلال والقيود، تلك الصّرخات الّتي تفجّر القلب و العروق والدّموع ، لا خيار لك إلا أن تحبّهم ، عندما ترى قبور أحكام الله ، تراها في جوف قبورها حيّةً عظيمةً تدفنها الرّمال الحزينة ، فلا تستطيع إلاّ أن تعشق كلّ من في المهجع ، أظنّ و الله أعلم أنّ الإسلام يحبّهم أيضاً ، فقد سُجنوا لأجله ، هم ليسوا علماء بأحكام الشّريعة ، و لكنّهم يحاولون الدّفاع عنها حسب فهمهم وقدرتهم ويهجمون على الآلام مبتسمين لتخفيف آلام الإسلام و معاناته، أظنّ أنّ الإسلام يحبّهم ، فعندما تهجم عليّ فكرة حبّ الإسلام لهم ، أتذكر قصّة أرملةٍ رواها لي سالم ونحن نرعى الأغنام ، فقد توفي زوجها ولها سبعة أبناء كلّهم متزوجون إلاّ أصغرهم ، و اسمه نايف وعمره عشرون سنة ، يسكن الجميع في

بيوت متلاصقة ، وقبل وفاة زوجها كانت لا تجرؤ أيّ كنّةٍ على مسّها بكلمة أو معاملتها بشكل غير لائق ، لأنّ حماهنّ كان يعتبر الإساءة لها جريمة يجب أن يعاقب فاعلها، و بعد وفاة الزّوج أحسّت الأمّ بالانكسار ، و أخذت تتراجع إلى الوراء شيئا فشيئا وأخذت بعض الكنّات يعاملنها بما لا يليق ، أحسّ نايف بأمّه إحساساً يناطح السّحاب ، فعمل بكلّ ما أوتي من قوّة لجبر كسرها وشدّها من يدها لتتقدّم إلى الأمام ، أو على الأقلّ لكي لا تتراجع إلى الوراء ، ثمّ شنّ هجوما عنيفا على زوجات أخوته اللاّتي عاملن أمّه بما لا يليق ، فسبّب لأمّه مشكلات مع أبنائها ونسائهم ، فسبّته كثيراً وتبرّأت من أفعاله و لكنّه لم يبالِ، و بقي يناضل لتبقى أمّه كبيرة بين الكنّات ، ولكنّه فشل في جعل أمّه سيّدة و كبيرة ، و رغم فشله فقد وضع في قلب وعقل نساء أخوته أنّ أمّه حماها مصان ، و أنّ هنالك من هو مستعدّ و بحرارة و حماس يغلي للثّأر لها والهجوم بلا تعقّل إذا حصل المسّ بطرف ثوبها ، ظلّ رافضاً الزّواج حتّى توفّت أمّه بعد ثلاث عشرة سنة ، كان يقول لها عندما يضايقها أحد :

*- أنا سيفك يا أمّاه ، أنا أسوارك أنا نعلك إن أصبحت يوماً حافيةً ، أنا معطفك عند البرد ، أنا السّجادة الّتي تدوسين عليها أنا دنانيرك يا أمّاه فأنفقيها في ما شئتِ وكيف شئتِ ومتى شئتِ .

كانت أمّه قضيّته وغايته ، تَكَسَر قلبه وطموحه وهو يحاول جبر كسرها ، تيبّست يداه وهو يحاول رفعها إلى أعلى أو الحيلولة دون نزولها إلى أسفل ، لأجل ذلك أحبّته كثيراً ، لقد كان حبّه في كفة وحبّ أخوته في كفّة ، و كذلك من هم في المهجع فقد سجنوا لأجل الإسلام وحاولوا الدّفاع عنه قدر ما يستطيعون كلٌ حسب اجتهاده ، منهم من أصاب ، و منهم من أخطأ و رغم كلّ ذلك أظن أنّ الإسلام يحبّهم وأنا كذلك أحبّهم وسأبقى أحبّهم دائماً.

كنت دائماً أرى عثمان بعد صلاة العشاء يقرأ في دفتر صغير أسود جميل جدّاً بحجم الكفّ، و تراودني نفسي أن أسأله عنه وفي كلّ مرّة أتراجع و لكن في هذه المرّة عزمت وسألته ،فأجابني :

*- هذا الدّفتر له قصّة غريبة ولكنّي أصدّقها من كلّ قلبي .

إزداد فضولي وشوقي أكثر فطلبت منه سماع القصّة ، فروى لي قصّة هي غريبة بالفعل .

*- قبل أن تأتينا بأسابيع جائنا طبيب في السّبعين من عمره ، موقوف بسبب نشاط له يتعلق بمقاومة التّطبيع مع الدّولة اليهوديّة ، وفي المساء بعد صلاة العشاء أخرج الطّبيب هذا الدّفتر من تحت مشدّ عضل يحيط بعضده ، و أخذ يقرأ فيه ، ويكرّر ذلك في كلّ ليلة في وقت محدّد، فسألته يوماً عن الدّفتر ، و ماذا يقرأ ، فأخبرني قصّة هذا الدّفتر ، قال أنّه رأى في المنام أنّ الأطفال الرّضّع

يرفضون الرّضاعة من أمّهاتهم و هم يصرخون جوعاً و الموت يحصدهم واحداً تلو الآخر ، إلا طفلا واحدا يرضع من أمّه هادئاً مطمئنّاً وأمّه تمسك بيدها هذا الدّفتر نفسه شكلاً ومضموناً ، و تقرأ فيه آيات من القرآن الكريم موضوعها حقّ شريعة الله بالحكم والتشريع والسّيادة ، و أحاديث نبويّة عن مستقبل الإسلام بالنّصر والتّمكين ، ثمّ دعاء بإعادة الحكم بشريعة الله واستئناف النّصر والعزّة للإسلام وأهله ،وفي كلّ صفحة تقلبها تنظر إلى طفلها وتخاطبه :

*- ارضع حليب أمّك المشبَّع بالغضب على اغتصاب حقوق الشّريعة، ارضع حليب أمّك المشبّع بالأمل بعودة الشّريعة سيّدة على الحياة ... ثمّ يرى على الفور في المنام نفسه مشهداً آخر لجموع نساء غفيرة يرضعن أولادهنّ وهنّ يقرأن مثيل ذلك الدّفتر ، فاسيقظ من المنام ، و شرع يتذكّر ما كُتب على ذلك الدّفتر ليخطّه على وريقات بيضاء ، و في اليوم التّالي ذهب إلى مشغل للدّفاتر و وطلب تفصيل دفتر يشبه تماماً ما رآه في المنام ، ثمّ خطّ بيده ما رآه مكتوبا على ذلك الدّفتر .

وقبل خروجه بعشرة أيّام تقريباً مرض وقمت أنا على شؤونه ، في طعامه وغسل ملابسه وحتّى مساعدته في ذهابه إلى الحمام ، وعندما أُفرجَ عنه قال لي :

*– أنا لا أملك الآن أغلى من هذا الدّفتر، هو هديّة لك فحافظ عليه .
سألت عثمان عن تأويل الرؤية فأجابني :
*– أنا لا علم لي بتأويل الأحلام ولكنّي سمعت الطبيب يؤّلها بأنّه سيأتي زمان لن يكون فيه دورٌ فعليّ في الحياة إلاّ لمن هو على غياب حكم الإسلام غاضب.
– و ما تأويل مشهد الجموع الغفيرة من النّساء اللّواتي يرضعن أولادهنّ وهنّ يقرأن بالدّفاتر.
*– لم أسمعه يؤول هذا المشهد ....الله أعلم .
– الله أعلم ، ولكنّها رؤيا خير .

استعرت الدّفتر ليوم واحد فقط، و فتحته قبل انتصاف اللّيل بقليل، قرأت في الصّفحة الأولى آيات من القرآن الكريم تبدأ بقوله تعالى : (إنّ اللهَ يأمرُكم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمْتُم بين النّاسِ أنْ تحكموا بالعدلِ) ، و تتواصل الآيات حتّى قوله تعالى :(فلا و ربِّك لا يؤمنونَ حتّى يُحكِّموكَ فيما شجرَ بينهم ثمّ لا يجدُوا في أنْفسِهم حرجاً ممّا قضيتَ ويُسلّموا تسليما)، و في الصّفحة التّالية آياتٌ أُخرُ تبدأ بقوله تعالى : (ولْيَحكم أَهلُ الإنجيلِ بما أَنزلَ اللهُ فيه و من لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ همُ الفاسقون) ، و تمضي الآياتُ رقابُها برقاب بعض إلى قوله تعالى: (أفحكمَ الجاهليّةِ يبغون ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون) ، و في الصّفحة الّتي تليها ثلاثُ آياتٍ من

سور مختلفة، الآية الأولى : (إنِ الحُكمُ إلاّ للهِ أمرَ ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاهُ ذلك الدّينُ القيّمُ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ) ، والآية الثانية : (أمْ لهم شركاءُ شرَعُوا لهم ما لم يأذنْ به الله) ، أمّا الآية الثّالثة فقوله تعالى : (أَفَغَيْرَ دينِ اللهِ يَبْغُونَ و لَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ طَوْعاً و كرْهاً وإليه يرجعون)، لم أقلب الصّفحة تملّكتني رغبة شديدة بتكرار الآيات، و كرّرتهنّ حتّى شُلَّت إرادتي عن قلب الصّفحة ، أبعدتُ الدّفتر عن وجهي حتّى أخرج من أسر الكلمات ، إنّها كلمات الله صاحب العظمة بلا حدود وصاحب الجبروت بلا انتهاء وصاحب الكبرياء بلا بداية ولا نهاية ، قلبت الصّفحة و إذا بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم عندما دخل عليه عديّ بن حاتم و رسول الله يقرأ قولَه تعالى : (اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله) فقال يا رسول الله : ما عبدناهم ، قال : بلى، أحلّوا لهم الحرام، و حرّموا لهم الحلال فاتّبعوهم فتلك عبادتهم) كُتبَ الحديث في صّفحة وحده، و باقى الصّفحات أحاديث عن المبشّرات بنصر الإسلام وأهله وفي آخر صفحة دعاء لعودة الحكم بالإسلام وليرجع شامخاً يعلو ولا يُعلى عليه ، أغلقت الدّفتر فتجمّعت الدّموع في عينايَ فحاولتُ كبحها و لكنّها سالت هادئةً مكسورة الخاطر، لامست خدي وهي مثقلةٌ بألم الجحود والنّكران ، سقطت على وجهي لتنفجر فتخلّف قتلى وجرحى هي بقايا سلاسل وأغلال و قيود الغضب على

ضرب شريعة الله بعُرض الحائط ، الغضب على دفن الشّريعة و هي على قيد الحياة ، الغضب على اغتصاب عرش الإسلام بوحشيّة ، نمتُ و الدّفتر تحت رأسي و تـــشكّلت بيني وبين الدّفتر علاقة لا أدري ما هي ولكنْ في كلّ يوم أستعيره دقائق أقرأ ما فيه و أرجعه إلى عثمان .

و مرّت الأيّام و مع مرورها يزداد تكيّفك على المكان و ساكنيه، و قد تمرّ أيّام تنسى فيها أنّك في سجن ، و في صباح أحد الأيّام جاء شرطيّ إلى مهجعنا، ليخبرَني بوجود زيارة لي في مكتب المدير ، استغربت من هذه الزّيارة غير المعهودة ، وعندما وصلت، فاجئني وجود صهري شقيق زوجتي ، جلست و الخوف يتعاظم في داخلي والوساوس تكبر و تتشعب في كلّ الاتّجاهات ، نظر إليّ صهري بنظرات حزينة :

*-أريد أن أخبرك أنّ أمّك مريضة ، إنّها في حالة صعبة .

أحسست أنّ أمي توفيت ، قلت له و أنا أفجع شيئا فشيئا .

*- هل توفّيت أمّي ؟

:- إنّها في حالة حرجة للغاية .

*- هل توفّيت؟

:- عظّم الله أجرَكم ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لقد ظلّت تدعو لك وترضى عنك حتّى آخر لحظة في حياتها .

قال لي مدير السّجن، بعد أن عــزّاني بأمّي :

*- إنّ من حقّك أن تحضر الجنازة، و لكنّ القانون يقضي أن تذهب بسيارة السّجن مرتدياً بدلة السّجن، مقيّدة يداك و تحت الحراسة ، و بعد الدّفن ترجع على الفور ، فكّر في الموضوع .

اختلطت مشاعري، و فقدت القدرة على تجميع أفكاري والقدرة على الاختيار أيضاً ، ما أصعب الاختيار بين نارين أو طعنتين أو قطع أحدى الإصبعين ، ما أقسى أن تكون بلا خيارات ، والأقسى من ذلك أن تضطر اختيار إحدى النارين في لحظات ، عليّ أن أقرّر وبسرعة ، بأيّ طريق يُكسر قلبي ، و لكنّ القلب الذي سيهشّم في كلّ الحالات كان يطير و بجنون إلى كفن أمّي ، لقد اختار فؤادي الطّريقة الّتي سيمزّق بها ، لقد اخترت الذّهاب إلى كفن أمّي مُكبّلاً ، اخترت الذّهاب إلى كفن أمّي وأنا كومة من الحطام . ذهبت إلى المهجع ، و إذا بجميع النّزلاء قد علموا بالخبر ، فقاموا بتعزيتي ثمّ ذهبت إلى سريري و ارتديت بدلة السّجن، سرت نحو الباب مغادرا ، فقبض يدي أبو طلحة وقال :

*- إلى أين؟

:- إلى الجنازة .

*- ستذهب مكبّلاً مجروراً ... لاتذهب ، إنّ اللّحظة الّتي تدفن فيها أمّك وأنت أمام القبر في هذه الحال هي اللّحظة الّتي ستدفن فيها

نفسك ، أرجوك لا تذهب إلى الموت برجليك ، إذا ذهبت سترجع بنفسيّة معطوبة ليس بالسّهولة مداواتها ... أعلَمُ أنّي ربّما لم أُحسن اختيار الكلمات في هذا الموقف ،و لكن صدّقني أني أخلصت النّصيحة لك.

ذهبت إلى سريري و أنا في حيرة أفقدتني الرؤية إلاّ من صورة أمّي تقف أمامي ، فبكيت بصمت ، غسّلت وجهي و ذهبت بصمت المخنوق إلى صهري وأخبرته أنّي لن أحضر الدفن،و رجعت إلى المهجع لأحسّ بقساوة السّجن وألمه وقهره بشكل غير مسبوق، وجميع مشاعر التكيّف مع المكان تدحرجت رؤوسها لحظة دخولي باب المهجع ، وأيّام السّجن أصبحت حميماً أتذوّقه كلّ يوم ، وفاة أمّي وأنا في السّجن زادت قنـــاعتي أنّ الشّعوب لا يمكن أن تتكيّف مع القهر و الاستبداد ، ستأتي لحظات على الشّعوب تشابه اللّحظات الّتي مرّت عليّ بعد وفاة أمّي ، عندها سيزداد إحساسها بسجن الاستبداد ، و تصبح غير قادرة على التحمّل و ستنتظر الفرصة لخلع أبواب السّجن .

و مع مرور الأيّام هدأت نفسي ، و ظهر لي صواب نصيحة أبي طلحة لي ، لقد دعوت له مراراً في ظهر الغيب على نصيحته القاسية لي ، فشريعة الله الّتي تنبذ خلف القضبان لا تنفعها العيون المكسورة ، إنما تحتاج وهي تنزف مثخنةً بالطّعنات والجراح إلى عيون قادرة

على الجحوظ بشراسة أمام الحراب المشرّعة من كلّ صوب ، إنّ تنحية الإسلام عن عرشه وقذفه مكبّلاً بوحشيّةٍ خارج المدن والقرى والبوادي في الصّحراء الجرداء الحارقة ، لا يحتاج إلى ظهورٍ متكلسة على الركوع و رؤوسٍ ثقيلة منحنية إنّما يحتاج إلى ظهورٍ منتصبةٍ من الفولاذ تـــتحمّل ضرب المطارق العملاقة، كما أنّ النّفوس المعطوبة لا تقدر على سباق المسافات الطّويلة ، جزاك الله خيراً يا أبا طلحة لقد فعلت بي الخير عندما منعتني من الذّهاب لأدفن حرارة قلبي بجوار أمّي .

و مضت الأيّام كئيبة قاسية و لم يبقَ من مدّة محكوميّتي سوى شهرين ، في تلك الأثناء جاءنا مهندس كهربائيّ من دعاة الخلافة الإسلاميّة في السّابعة والعشرين من عمره، و هو أعزب دخل والفرحة ظاهرة على وجهه ، كأنّه داخل على مكان للترفيه و ليس إلى سجن ، و مع صغر سنّه فهذه هي المرّة الثّانية الّتي يسجن فيها، وأخذ يتعرّف على الشّباب بسرعة هائلة و لم يخاطبني إلاّ بكلمة (عمّي)، و ذات يوم و نحن نأكلُ طعام الغداء الذي كان يأتي غالبا بارداً ، تمنّى مصطفى أن يأكل طعام الغداء و هو ساخن جدّاً ، و أخذ الشّباب يكرّرون هذه الأمنية ، و في وسط الأمنيات فاجأ المهندس الجميع بقوله بكلّ ثقة .

*– أنا سألبّي لكم هذه الأمنية وليس ليوم واحد فقط بل كلّ يوم بإذن الله تعالى .

سأله الجميع بدهشة:

*– كيف .

أجابهم بابتسامة الواثق بنفسه:

*– الجواب ما ترون ،لا ما تسمعون .

وبدأ بعمل هيتر لتسخين الماء مستخدماً خامات المهجع يسهر كلّ يوم حتّى الفجر، فأحضر أكياس بلاستيك سميكة تتخلص منها البقالة بعد إفراغ البضاعة منها، و أخذ يسخّن لنا الطّعام على بخار الماء أو داخل الماء مستخدماً الأكياس البلاستيكية السّميكة وأصبحنا لا نأكل إلا طعاماً ساخناً ، ما زلت أذكر إلى الآن أول وجبةٍ ملتهبة أكلناها ، فقد التهمنا الطّعام بشهيّة غير مسبوقة وبعشق لحرارة الطّعام ، سبحان الله نعمةٌ عظيمة أن تأكل الطّعام ساخناً ، كثيرٌ من النّعم لا نشعر بها إلا حين نفقدها ، لكنّ الأفضل والأجمل أن نشعر بها ونحن ننظر إليها بغبطة وسرور وحمدٍ لله وشكر، إنّها لم تفارقنا حتّى هذه اللّحظة .

و في إحدى اللّيالي والمهندس سهران كعادته ، لفت نظره الأرق الذي يصيب عثمان كلّ يوم فقال له مداعباً :

*–هذا الأرق بسبب حمزة أم بسبب أُمّ حمزة .

ضحك عثمان و قال :

*– والله ليس بسبب حمزة ولا بسبب أمّ حمزة ، إنّما بسبب هذه الإضاءة ، الضّوء عند النّوم يسبّب لي الأرق.

فقال له المهندس بثقة بدأنا نعتاد عليها:

*– هل تريد أن تتحكّم بالمصباح الذي فوق سريرك ، تشعله متى تشاء وتطفئه متى تشاء .

:– نعم أريد ولكنّ ما تقوله مستحيل ، فغرفة التّحكّم بالأضواء موجودة في مبنى إدارة السّجن ، كيف ستفعل ذلك .

أجابه ضاحكاً.

*– الجواب ما ترى لا ما تسمع .

وعلى الفور بدأ العمل ولم يطلب مساعدة من أحد ، فصنع من المناشف حبالاً وأحضر من شبك النّوافذ الداخلي الرفيع حديداً وأخرج من علب الكهرباء أسلاك الإرث ،و واصل العمل وبعد ثلاثة أيّام أنهى العمل ، و لم نر إلا حبلاً متدليّاً من المصباح الذي فوق سرير عثمان ، بقي المهندس صامتاً، وعندما صلّينا العشاء أحضر إبريقا مليئا بالماء و ربطه بالحبل ، فتعلق الإبريق، فإنطفئ الضوء، كبّر الجميع وهم يستمتعون بالمفاجأة ، ثم فكّ الحبل فاشتعل الضوء ، و من تلك اللّيلة غادر الأرق ليالي عثمان .

وفي ذات صباح خاطبنا المهندس قائلاً :

*- إن اليوم هو الرابع والعشرون من آذار؛ ألا يذكّركم هذا اليوم بشيء ما؟

حاول الجميع التذكّر فتذكّرته إنّه ذكرى هدم الخلافة الإسلاميّة ، تكلّم المهندس عن الخلافة كلاماً كثيراً أشبه بكلام طفل يتكلّم بشوق وعشق عن أمّه الغائبة منذ يوم ميلاده ، و أذكر من الكلمات الكثيرة الّتي قالها :

*- إنها دولة الخلافة .....إنها دار الإسلام ، إنها سياج الدّين ، إنّها بنادق الإسلام المشرعة في وجوه الظالمين ، الخلافة قادمة و لن تأتي أمويّة ولا عباسيّة ولا عثمانيّة بل ستأتي خلافة على منهاج النّبوّة.

لقد حاول بكلّ ما يستطيع أن يؤكّد أنّ الأمّة عملاق مقيّد بأطنان الأغلال والسّلاسل، و أنّ الأغلال ستتكسر في النهاية وأنّ الأمّة مارد مسجون في زجاجة ومهما طال الزّمن فإنّ الأمّة ستخرج، و لن تستطيع أيّ قوّة على وجه الأرض أن تعيدها إلى عنق الزّجاجة.إنّ الضّرب بشكل متواصل على وتر الخلافة يلفت نظرنا نحو الأمام ، يزرع بذور الاشتياق إلى المستقبل ، إنّ الطّرق المتواصل على قضيّة الخلافة ينحت طموحاً نحتاجه عندما تَطول الطّريق، والطّموح بحدّ ذاته لذّة تتذوّقها الأمّة إذا كان مرتبطاً بعقيدتها، نحن بأمسّ الحاجة إلى طموح واضح نؤمن به حتّى يداوي جراحنا الكثيرة

والعميقة ، نحن بأمسّ الحاجة إلى رؤية المستقبل حتّى لو كان بعيداً ليجبر كسورنا الّتي تتكرّر على الدّوام ، نحتاج كثيراً إلى الأمل لنستطيع فتح نافذةٍ من الـــفرح المبتور والسّرور الذي يمرّ سريعاً. فدعوة الخلافة تبني ما تهدّم من أحلامنا بمستقبل مشرق وترمّم ما تآكل من طموحنا العملاق ، فالحاضر البشع يجب أن لا يقتل المستقبل ، و الأمّة الّتي تهدم طموحها هي أمّة تنتحر في حاضرها .

8

جاء موعد الإفراج عنّي والفرحة تُبنى شيئا فشيئا في أعماقي،والشّوق الطائر في داخلي لا يهدأ ، و يحلّق في الآفاق و يغوص في الأعماق ودّعت الجميع ، وعندما وصلت إلى عثمان كشف عن عضده وخلع مشدّ العضل و ألبسنيه على عضدّي، و وضع الدّفتر تحته و قال لي العبارات نفسها الّتي قالها له الطّبيب عند إهدائه الدّفتر:

*- هذا الدّفتر هو أغلى ما لديّ الآن أرجوك حافظ عليه، أنا لا أستطيع الحفاظ عليه فمشواري طويل خلف القضبان.

خرجت من السّجن في بداية سنة 2007 و قبل أن أذهب إلى بيتي ذهبتُ إلى قبر أمّي ، بكيت بهدوء شديد و رمال القبر تمسك بي تمنعني من المغادرة ، و بعد إجبار نفسي على المغادرة ، مشيت بين القبور ثم نظرت إلى قبر أمّي من بعيد ، و تخيّلت نفسي ببدلة السّجن أقف أمام القبر تحت حراسة رجال الأمن و قلت في نفسي :

*- الله يجزيك الخير يا أبا طلحة ، نعم نحن لا نحتاج إلى مزيد من الذّلّ ، فقد شربنا الذّلّ حتّى خرج من حلوقنا .

ومشيت مغادراً المقبرة . تُـــذكِّرُنا القبور بالموت الذي يدمّر لذّاتنا عند ذكره ، و تذكّرني القبور أيضاً بأحكام الشّريعة المدفونة تحت الأرض وهي حيّة في كامل قوّتها وجمالها و روعتها ، كم أنا مشتاق

لأرى تلك الدفائن تخرج إلى الحياة من جديد ، كما أنّي أشعر بها ، أشعر ماذا يعني إهالة التّراب على العظماء و دفنهم وهم أحياء .
وقضيت أسبوعا أستقبل الأقارب والأصدقاء ، و كم سررت من ابنتي ناهد وهي تقول لي أنّها منذ الزّيارة الأولى لي لا يمرّ يوم إلا وتبعث برسائل عبر الإنترنت إلى منظّمات حقوق الإنسان و لجان الحرّيات في النّقابات و مجلس النّواب عن معاناة السّجناء الإسلاميّين كما وصفها لها أبو طلحة ، أتعرفين يا ياسمين ماذا كنت أتمنى وأنا في طريقي إلى البيت بعد زيارة قبـــر جدّتك، تمنّيت أن أدخل البيت وأكتشف أنها أصبحت ترتدي الحجاب، و لكن للأسف لم يحدث ذلك، قلت لها :
*- ألم يأتِ الوقت لكي ترتدي الحجاب .
:- الحقيقة أنّني لا أريد ارتداء الحجاب ، و لكن صدّقني يا أبي أنّي منذ دخلت السّجن لم يدخل المشروب فمي إطلاقاً .
لقد اقشعرّ بدني من قولها بخصوص المشروب ، فهي تتلفّظ به وكأنّها تقدّم لي معروفاً عظيماً ، في تلك اللّحظة أدركت بأنّي لم أعد أحتمل ما كنت أحتمله قبل السّجن من تصرفات الأهل والأقارب وظللت أقول في نفسي : يجب أن أصبر وأحاول التكيّف مع الجوّ الجديد القديم .

رجعت إلى عملي في مركز الدّراسات ولكن بمعنويّات مختلفة ، فاليأس والإحباط يزداد في داخلي ، و كلما أدركت حقائق الواقع ازداد اليأس أكثر فأكثر ، فأنا أقف أمام ساحة سياسيّة مجرفة تماماً ، من غير الممكن النّزول إليها؛ فدائرةُ المخابرات العامّة تمسك غالبية خيوط الحياة العامّة ، و صلاحيّات للقصر لا حدود لها ، و الشّعب المسلم ليس له ولاية لا على نفسه ولا على حياته ولا على أرضه ، وإذا نظرت نحو الغرب رأيت الدّولة اليهوديّة ، تمنع عنك مجرّد أحلام السّير نحو الأمام ، و إذا نظرت إلى باقي الاتّجاهات رأيت ثمّ رأيت الشّعوب و الأراضي مُقسَّمة مجزّأة ، و إذا نظرت فوق رأسك رأيت قوى دوليّة تحتــلّــنا احتلالاً غير مباشر ، كيف ستُطَبَّقُ الشّريعة والأمّة في سجن الاستبداد ؟ و فوق السّجن تجثم هيمنة القوى الكبرى؟ والذي يقطّع القلب ، أنّ السّجون الّتي تعيش فيها الأمّة محكمة الإغلاق، و هيمنة القوى الكبرى علينا ليست بسيطة و يمكن توصيفها بانّها منظومة من الهيمنة بوجود مجلس أمن،وتجزئة و قواعد عسكريّة والدّولة اليهوديّة ... كلّما أدركتُ حقائق القوّة لهذه القوى الكبرى الّتي تحمي منظومة الهيمنة تلك أُصِبتُ بالذّهول بل بالصّدمة ، و أصبحتُ أرى مقاومة الأمّة وهي في سجن الاستبداد أشبه ما تكون بمقاومة أبي طلحة داخل السّجن ، و أخذت أغرق في اليأس والإحباط ، لكنّي قرّرت أن أحاول السّير مع اليأس، إنّه

عمل شاق جدّاً أن تعمل رغم اليأس وأن تتحرّك فقط لأجل الحركة حتّى لا تتكلس و لا تُشلّ ، حتى إذا ما فُتِح الطّريق كنت قادرا على المشي فيه ، كل ما تعلمتّه في السّجن أحاول الاستفادة منه في حياتي لقناعتي أنّ الشّعوب العربيّة تعيش في سجون متباينة ضيقا واتساعا لكنّها كلّها سجون ، و في غمرة اليأس الذي أكلني ، جاء تزوير الانتخابات النيابيّة الأردنيّة في 2007م بإخراج مؤلم، أظهر للشّعب السّجين أنّهم يتعمّدون إهانته، يذكّرني تزوير الانتخابات بما كان يفعله الأمن حين يُجرّدنا من ملابسنا إمعاناً في إذلالنا فقط ، فما الذي يستفيدونه من التّزوير ونحن نعيش في ظلّ صلاحيّات مطلقة للقصر، و جهاز مخابرات يهيمن على الحياة العامّة؟! هذا السّؤال حيّرني و زاد إغراقي في اليأس ، و مضت الأيّام و نحن في الأردن نزداد تمزّقاً وضعفاً ، و تذهب شيئا فشيئا ريحنا الطّيّبة العطرة ، عندما تـــريد أن يسير شعب نحو عزّة دينه وعزّته ترى في كلّ نقطةِ قوّةٍ فيه خطوة إلى الأمام وكلّ حبل من حبال الوحدة والتكافل عتاداً و سلاحاً نحتاجه في ظلمات الطّريق .

وأنا في طريقي إلى البيت إذا برقم غير معروف يتّصل بي و إذا بفتاة تخبرني أنّك يا ياسمين في مستشفى الجامعة الأردنيّة، توجّهت مسرعاً إليك وفي قلبي شيء من الخوف عليك، هذا الخوف لم يكن بهذه المساحة من قبل ، هل هو السّن ؟! فقد دخلتُ في الخمسينات

من العمر، أم هو اليأس والإحباط الذي أكل الكثير من صلابتي وتماسكي؟! أم هو مظاهر الانقسام و التّمزّق بين مكوِّنات الشّعب زرعتْ أشتال الخوف في أعماقي دون وعي منّي؟! أم هو كلّ هذه الأشياء مجتمعة ؟! لا أدري ، لقد تسائلت كثيراً عن سبب اتّساع مساحة الخوف في أعماقي فلم أستطع الإجابة حتّى هذه اللّحظة ، وصلت المستشفى فأخبروني أنّك في غرفة العمليّات، وأخذت أنتظر خروجك دون أن أخبر أحداً وقلبي يكاد ينفطر ، انتهت العمليّة وهرعت إلى الطّبيب ، فأخبرني أنّك تعرّضت لضربة بحجر على عينك اليسرى مما تسبّب بتهتّك العصَب البصريّ ، كدت أسقط على الأرض ، و سألت الطّبيب عن العمليّة فأجابني :

*- إن شاء الله خير ، لكن لن تظهر النّتيجة إلا بعد فكّ الضّمادة عن عينها ومعرفة نسبة الضّرر.

انتظرتك على جمر في القلب حتّى خرجتِ من غرفة الإنعاش يا ياسمين ، عندها اتّصلتُ بأمّك وأختك وخالك ، و بعد أن استيقظت جيّدا سألتك عمّن ضربك بالحجر ، فأخذت ترويين لي قصّة المشاجرة الكبيرة الّتي حدثت بين الطّلاب في الجامعة و استُعمِلتْ فيها الحجارة والعصيّ ، وعندما وقفتِ تنظرين لمعرفة ماذا يجري فوجئتِ بالحجر على عينك ، لا أخفي عليك يا ياسمين أنّني فوجئت بك وأنت تتكلمين مطمئنّة بلا خوف واضح ، وعندما سألتِني ماذا

قال الطّبيب حاولت أن أُبَسِّط لك الموضوع ، حينها قلت لي كلمات ما زالت أسمعها في أذني :

*- مهما حدث لي فإنّ الله سوف يسندني ، أنا واثقة من ذلك ، أليست هذه دعوتك لي ونحن على شبك الزّيارة ، إنّني ألمس مساندة الله لي في كلّ أمر، أنا واثقة أنّ الله استجاب دعاءك لي يا أبي ، بل أشعر بذلك في كلّ يوم .

وبالفعل يا ياسمين فقد ساندك الله ورجعت عينك كما كانت بفضل الله وفي يوم خروجك من المستشفى قرّرت أن أهديك أغلى تحفة امتلكها في حياتي ، مفتاح العلب الخاص بجدّتك ... ظلَلتُ متألماً من ظاهرة العنف الجامعيّ؛ ففي كلّ شهر تحدث مشاجرة كبيرة في إحدى الجامعات الأردنيّة ، تبدأ بين طالبين وتنتهي بين عشيرتين أو أكثر، و في كلّ سنة تزداد نسبة المشاجرات الجامعيّة ، قال لي خالد عندما علم بما جرى :

*- عندما تمشى في الجامعة تجد جماعات من الطّلبة الرّابط بينها إمّا العشيرة أو الإقليم ، و في كلّ سنة تتكاثر هذه الجماعات وتكبر الشِّـــلَلُ، و تتّسع مساحة المشاجرة وهذا أبرز مظهر لما فعلته السّلطة بتغييـــر جينات العشيرة وتسيسها وتوظيف الانقسام السكّاني والعشيرة لخدمة السّلطة وضرب خصومها .

– أتدري يا خالد إنّ الأجواء الّتي وضعتنا فيها السّلطة تسنّ أنيابنا وتشحذ مخالبنا، و بالتّالي سيكون نهشنا لبعضنا البعض بليغاً، ما يجري في الجامعات هو إنذار مبكر لمستقبل التّعايش بين أجزائنا و مكوِّناتنا ، المؤلم والقاتل أنّه لا يوجد في الأفق شيء يجبر السّلطة على وقف هذه المأساة .

ومضت الأيّام واليأس والإحباط أصبح فوق طاقتي ...لا أستطيع تحمّله فتحكيم الشّريعة أصبح كما أرى بعيدا إلى مسافة أجيال وأجيال ... و جاءت انتخابات 2010م وشهدت هي الأخرى تزويراً واضحاً ، مُجَسِّدا التّمادي في الدّوس على إرادة الشّعب ونحن داخل سجن الاستبداد ، لم يعد الاستبداد وحده مدمّراً بل ازدياد التّمزّق والتّشرذم بينـــنا، في ظلّ صمت الشّعب ، و كأنّ الأمر لا يعنيه ، و ظللت يائساً ومحبطاً و محاولا المشي رغم كلّ ذلك حتّى حدثت الثّورة التّونسيّة، ياه يا ياسمين ما أجمل منظر هذا الشّعب المسلم الكريم وهو يضرب أبواب السّجن بيده العزلاء ، و يهدم ما تبقّى من جدران الخوف والصّمت ، ما أروع منظر أبواب السّجن وهي تتكسر وتتحطّم! يا إلهي ما أجمل وأروع مشهد الشّعب وهو خارج أسوار السّجن ! هذه المشاهد طرقت بقوّة قلاع اليأس و الإحباط في أعماقي ، هذا المشاهد الّتي استيأست من رؤيتها و لكنّ الله العليّ الكريم أكرمني برؤيتها وأكرم الأمّة بأن تعيشها و مع كلّ

ما أحدثته الثورة التونسيّة من أنوار عظيمة في أعماقي إلا أنّي لم أشعر بالحرّيّة إلاّ بعد انتصار الثّورة المصريّة، شعرت بالحرّيّة فعلاً، تذوّقت طعمها عن بعد، ما ألذّ طعم الحرّيّة، لقد جرّبت طعم الحرّيّة لحظة خروجي من السّجن ، إنّ طعم حرّيّة الأمّة أبلغ و أجمل من مشاعر خروجي من السّجن بألف مرّة ، بكيت من الفرح مع شهوة مكبوتة و ملتهبة لدموع الفرح برؤية الحرّيّة تمشي في الحياة عزيزة ، كريمة ترفَع رأسها وترفع رأسنا معها ، و بقيت في أعماقي شهوة ملتهبة لا تخبو إنّها شهوة رؤية شريعة الله تغادر أسوار السّجن، و أشعر باقتراب ذلك . و أصبحتُ أسير بحرارة و أمل مع الحراك الشّعبيّ في الأردن ، أمشي مع كلّ مسيرة وأقف مع كلّ اعتصام ، وأطرق معهم أبواب السّجن ، و في كلّ يوم يمضي يزداد إحساسي أنّ الشّعب الأردنيّ لا يتحرّك للخروج من السّجن ، إنّما الذي يتحرك نخب سياسيّة وفكريّة وقلة قليلة من الشّعب ، و السّبب واضح هو توظيف الانقسام من قبل السّلطة ، كم هو مؤلم أن يُضَيِّع شعب فرصته الحقيقيّة في الحرّيّة والخروج من السّجن حتّى لو كان السّجن واسعاً ، و فيه من الفسحة ما لا يوجد في غيره ، لقد حَرَمَنا توظيفُ الانقسام من الحرّيّة ، آه ... آه ... أقسى أوضاع السّجون عندما يكون السّجناء منقسمين، و أقسى من ذلك

عندما يمنعهم الانقسام من الخروج من أَسْرِهم ، أذكر كلمات ابن الحركة الإسلاميّة أبي حسّان كان يقولها ونحن في السّجن :

*- السّجن مقبرة الأحياء وشماتة الأعداء وهادم للمروءة وثوب للوضاعة وسوق تباع فيه الكرامة بثمن بخس .

لكنّي اليوم وأنا أسير في المسيرات والاعتصامات أرى ما هو أقسى من كلام أبي حسّان ، و هو أن تكون في سجن وأنت تشعر أنّك في أحضان الحرّيّة ، و أقسى من ذلك كلّه أن لا تحسّ أنّ حرّيّتك خطوة نحو تحرير الإسلام من غياهب زنزانته .

وفي غمرة فرحتي بامتداد محاولات تحطيم وخلع أبواب السّجون في اليمن وليبيا وسوريّة ، بدأت تظهر على جلدي بثور صغيرة و قروح صغيرة جدّاً عددها أقلّ من عدد أصابع اليد الواحدة ، عليها ما يشبه القشور، فذهبت إلى الطّبيب فشخّص لي تلك البثور والقروح أنّها نوع من أنواع مرض الصّدفيّة وكتب لي الطبيب دواء ، بتُّ مداوما عليه ، و مع ذلك ازدادت البثور واتسعت القروح ، فذهبت إلى طبيب آخر ، فأجرى لي مجموعة من الفحوصات استمرّت اسبوعاً كاملاً ، و كانت نتيجة الفحوصات أنّي مصاب بسرطان الجلد، مشيت في الشّارع وحدي ، لا أريد أن ألتقي أو أرى أحداً ، يغمرني شعورٌ بالدّمار الشامل ، أحاول لملمة شعثي المبعثر ولكن دون جدوى، شعرت ببداية النّهاية ، و أنّي لن أشهد

اكتمال بدر خروج الأمّة من السّجن، و سيرها برفق نحو تحكيم الشّريعة ، رجعت إلى سيّارتي و قدتها دون هدف محدّد، سرت بها في كلّ الطّرقات إلا طريق بيتي، ثمّ اتّجهت إلى مركز الدّراسات ، وصلته و أنا متردّد في إخبار خالد؟ رأيت خالدا يبكي بهدوء وعيناه لا تفارقان التّلفاز، نظرت إلى التّلفاز، وإذا بخبر استشهاد الشيخ أسامة بن لادن ، لقد أنساني هذا الخبر كل دماري وبعثرتي ، سالت دموعي، لقد بكيته يا ياسمين ، و لم أبكه وحدي ، فقد بكاه غبار المعارك وصوت البنادق ، بكته الخيول وغيرة الفرسان ، بكته الشّموع وحتّى الدّموع ، لقد غادرنا ونحن مشغولون بالخروج من السّجن ، فلم نقم بواجب عزاءه خير قيام ، لقد جُلِدنا بسياط كثيرة لكي نتحرك ولا نطيل الوقوف وكان واحداً من تلك السّياط ، لقد صبّ بكرم في خزّان وقودنا ونحن نسير نحو عزّتنا وكرامتنا ، لقد كان وهو متخفٍ نداءً يأتي من بعيد لكنّه مسموع ، نداءً ينفخ الحرارة في دمائنا حتّى لا تــفــتــر ويقــتــلنا البرد ، لقد كان حبلاً من الحبال الكثيرة الّتي ألقيت من أعلى لــتنــشل همم الأمّة من قيعان الــيأس والقهــر ، لقد كنت أراه في ثوراتنا وهو يضرب معنا باليد العزلاء أبواب السّجن وجدار الصّمت و الخوف ، وكنت أراه مع الهتافات الّتي تخرج مــتبخترةً من حناجرنا، آه يا شيخ أسامة جاء خبر استشهادك في اليوم نفسه الذي جاء فيه خبر إصابتي بالسّرطان

، الحمد لله الّتي جاءت الفواجع ونحن نحتـــفل بحرّيّتنا ، وداعاً يا شيخ أسامة وداعاً يا حرارة قلوب الغيارى ، ويا سخونة دموع الثّكالى ، وداعاً يا وجع الفرسان ويا جرح الكرامة، بل إلى اللقاء يا كسر الخواطر ويا زغرودة العزّة والكرامة .

وجاء يوم الجمعة ورغم كلّ الوجع والإحساس بالنّهاية فقد قرّرت الذّهاب إلى المسيرة الّتي ستنطلق من المسجد الحسيني في وسط عمّان ، بل سأسير في كل مسيرة وأقف في كلّ اعتصام حتّى أعجــز عن المشي والوقوف أو يخرج هذا الشّعب الكريم من سجنه، وفي وسط المسيرة التقيت أبا حسّان ، رفيقي في السّجن ، شكى لي أبو حسّان متألّما محاولاتِ بعض الكتّاب وصف هذه الثورات ، بالمؤامرة ، فقلت له مبتسماً ابتسامة هجــرتــنـــي من مدّة :

*- لا يوجد في التّاريخ ولا عند العــقول السّويّة أنّ الخروج من السّجن مؤامرة ، ففي كلّ الأحوال ليس بقاء شعب من الشّعوب في السّجن إلا مؤامرة على حياته ومســتــقبله .

وظللت على تلك الحال حتّى تفاقم مرضي ، وبينما أنا في تلك الحال سمعت من أمّك يا ياسمين أن ناهد ابتعدت عن صديقها لقد اكتشفتْ أنّه على علاقة بفتاة غيرها ، لقد سررت بهذا الخبر ، كنت على قناعة أنّها ستهجره ، و على ثقة حتّى هذه اللّحظة أنّها لن ترجع إليه مرّة أخرى، أنا أعرفها جيّدا ، هي لا تستطيع أن تغفر خطيئة بهذا

الحجم ، حتّى لو أرادت فهي لا تستطيع ، الحمد لله ، لقد فرحت بهذا الخبر، ولكن ما بدّد فرحتي تَغيُّر ناهد وميلها نحو العزلة وبروز التّجهّم والحزن على وجهها، لقد دعوت لها دعائي المعتاد ، الذي أدعوه لها في كلّ يوم ، و قبل كلّ إفطار وأنا صائم ضارعاً:

*-اللّهمّ إن أردت أن تكافئني على أيّام السّجن في سبيلك فاجعل مكافئتي في بنتي ناهد بأن تهديها وتيسّر لها زوجاً يحبّها و يستوعبها ويحترمها وهو مسرور منها وما ذلك عليك صعب يا الله ياصاحب القدرة بلا حدود .

في هذه الأثناء قُتِل طاغية ليبيا، شعب سجين يقتل سجّانه ، ويخرج من السّجن بلا عودة، وعندما يذهب الطّغاة تذهب معهم الأشوك الصّلبة في الطّريق ، و رؤية دماء الطّغاة مسفوحة تعطينا شجاعة وقوّة وإصرارا نحتاجه للتّخلّص من آثار السّجون على عقولنا وقلوبنا، بعد مقتل طاغية ليبيا رأيت حكم الشّريعة قريبا في ليبيا أقرب بكثير من تونس ومصر، هل يا ترى سأعيش لأرى حكم الشّريعة ، لا أطمع أن أعيش تحته وأتــذوّق طعمه بل أطمع فقط برؤيته من بعيد، من بعيد فقط .

ازدادت حالتي سوءاً و زاد الألم و زادت مع آلامي غزارة الدّماء في سوريا هذا الشّعب العائد بعد الغياب أعظم ممّا كان ، إنّ انتصار الشّعب العظيم في سوريا على الطّغاة، سيشكّل نصراً للأمّة بأسرها،

هذا النّصر سيسرّع سيرنا نحو إخراج الشّريعة من خلف القضبان، و مع تفاقم المرض قرّر الأطباء لي العلاج الكيماويّ، و تركوا الخيار لي و قلت لنفسي الكلمات نفسها الّتي قلتها في سجني عندما يُخيَّر الإنسان بين الذّبح و الحرق، وبقيت متردّداً حتّى جائني خالد و قال لي :

*- سآخذك اليوم في نزهة ، لقد أحضرت لك كرسيّا متحرّكا حتّى لا تتعب .

لم أسأله إلى أين ، و مضيت معه دون ممانعة لحاجتي الشديدة للخروج من جوّ المرض والألم رغم إحساسي بالألم ، ومضى بي حتي وصلنا مبنى رئاسة الوزراء ، وإذا باعتصام لعشرين ألفاً من المعلّمين ، يطالبون باسترداد كرامتهم، لم أشعر أنّ الربيع العربيّ قد وصل الشّعب الأردنيّ إلاّ في تلك اللّحظة، وأنّ التّغيير في الأردن مسألة وقت فقط، صدقيني يا ياسمين أنّي نسيت الألم ، وفي غمرة نشوتي وفرحتي وإذا برجل ينزل على ركبتيه ويحضنني ويقبّلني ويقول:

*- هل تذكّرتني ....أنا .

- أنت المدرّس طاهر، أوّل رفيق لي في السّجن .

وأخذنا نتذاكر أيّام السّجن ثم قلت له : هل خرمشت صدرك وكشطت يديك بدبوس وأحضرت تقريراً طبيّاً وشكوت على طالب .

ضحك المدرّس وقال:
*- هذه الجموع تغني عن ذلك ، الرّبيع العربي سيعيد للأمة جميعها كرامتها.
ثم أخبرته عن مرضي ، وأنّي متردّد وأشعر بالخوف من العلاج الكيماويّ، فنزل على ركبتيه و وضع عيناه في عينيّ وقال :
*- عشت شجاعاً لأجل تحكيم الشّريعة في الوقت الذي جبن فيه الكثيرون فأرجوك أن لا تخاف في الوقت الذي كسر فيه الكثيرون جدران الخوف. غادرت إلى بيتي وأنا عازم بصدق على أخذ جرعة العلاج الكيماويّ.

9

توفي أبي بعد جرعة العلاج الكيماوي بساعات و أثناء تغسيله، وجدوا على عضده الأيمن مشدّاً وتحته الدّفتر الذي أهداه إياه عثمان، احتفظت أمي بالدّفتر وطلبت من ناهد أن تلبس شالاً على رأسها في أيّام العزاء فقط ، إلاّ أنّ ناهد رفضت وقالت لأمّي :

*- ليس الآن يا أمّي .

وبعد أيّام العزاء مباشرة فوجئتُ بناهد وهي مرتدية الحجاب واللّباس الشّرعيّ كاملاً ، وتطلب منّي مرافقتها مع خالي لزيارة قبر أبي ، ذهبنا إلى القبر، و وقفت ناهد أمام القبر صامتةً بلا دموع عيناها لا تفارقان القبر، أحسست أنا وخالي أنّ ناهد تـــريد أن تختلي بالقبر وحدها، غادرنا أنا وخالي لننتظرها عند السّيّارة، وما أن مشينا عدّة خطوات حتّى سمعنا صوت بكائها، لا أدري لماذا أجهشت بالبكاء إلى هذه الدّرجة، هل لعقوقها أباها الذي كان يتمنّى أن يراها بالحجاب، و هي الآن تصرّ على الوقوف أمام القبر بلباسها الشّرعيّ، لتقول لأبيها أنّي أحقّق لك ما كنت تـــتمنى، و أعود إليك بعد أن فارقت الحياة .

وبعد وفاة أبي بسنة تزوّجتُ من شابٍّ يكمّلني في كثير من جوانب شخصيّته، و خصوصاً الخوف، فهو شجاع لم أشعر يوماً أنّ الخوف له مكان في قلبه، تأثّرت به دون أن أشعر، و أخذ يداويني دون أن يشعر هو بذلك، أكثر ما يميّز علاقتي به أنّه دائماً بجانبي يساندني في كلّ صغيرة وكبيرة ، عندما أجده على هذه الحال أتذكّر دعوة أبي لي في أوّل زيارة له في سجنه .

و مضت الأيّام وناهد تزداد التزاماً بدينها، و يسّر الله لها شابّا من أقارب زوجي كان يبحث عن فتاة ملتزمة، تزوّجها رغم أنّها لم تره إلا مرّتين فقط في بيتنا، و لكنّ الله شرح قلبها له بطريقة غريبة ، بعد أن كانت ترفض الزّواج بهذه الطّريقة، و كنت خائفةً عليها من أن تفشل في زواجها لأنّها فتاة عصبيّة وعنيدة جدّاً، و يصعب عليها التّنازل لأحد، و لكنّ زوجها استطاع أن يستوعب كلّ نوبات غضبها وعنادها الشدّيد، وعدم تنازلها، و استطاع أن يمشي معها في حياة زوجيّة سعيدة، كنت أقول لنفسي إنّ الله استجاب دعوة أبي لناهد حملت ناهد وعلِمت أنّ المولود ذكر، و أبدت رغبتها لزوجها بتسمية المولود على اسم أبيها (طارق)

وافق زوجها رغم أنّه كان يرغب بتسميته اسماً آخر وقال لها :

*- إنّ أباك رجل صالح ، أسأل الله أن يكون ابننا صالحاً مثله .

وجاء المخاض لناهد و رافقتها إلى المستشفى، و خرج طارق الصّغير إلى الدّنيا، إنّه يشبه أبي، نعم إنّه يشبه أبي كثيراً، و أخذ الطّفل بالبكاء، فطلبتُ منها أن ترضعه، فكشفت عن عضدها وأخرجت من تحت المشد الدّفتر الذي أهداه عثمان لأبي ، وفتحته وأخذت تقرأ فيه، ثم أرضعت طارق الصّغير و وضعت شفتاها على أذنه وقالت :

*- ارضع حليب أمّك المشبَّع بالغضب على اغتصاب حقوق الشّريعة، ارضع حليب أمّك المشبّع بالأمل بعودة الشّريعة سيّدة على الحياة ... استمرّت ناهد بإرضاع طارق الصّغير مدّة سنتين وفي كلّ مرة ترضعه تضع شفتاها في أذنه وتسمعه الكلمات نفسها .

رحم الله أبي فقد كان غياب الإسلام عن الحياة همّه وقضيّته ، سمعته مرارا يقول :

*- إنّني أسمع آهاتِ وصراخ الإسلام ألماً وقهراً وهو يُضرب بعُــرض الحائط خارج الحياة والدّولة .

في أحد الأيّام سمعته يخاطب شجرة عمرها مئات السّنين :

*- يا ترى كيف كان طعم حكم الشّريعة أيّتها الشّجرة ، أنت من ذاق طعم حكم الإسلام وذقت طعم غيابه يا ليتك تخبرينا بالفرق ، فمن ذاق عرف أيّتها الشّجرة .

وأذكر أنّي كنت جالساً معه في البيت فأمطرت السّماء فصعد إلى السّطح وعرّض نفسه للمطر وهو يقول :

*- أيّها المطر المبارك ، أنت حديث عهد بربّك ، فأنت تنزل على أرض شرع الله فيها معطّل، ستحترق أيّها المطر كما احترقتُ أنا من قبل .

بقيت أسير في حياتي و أنا أشعر أنّ الله يساندني في كلّ أزمة في حياتي، و ما زال دعاء أبي لي يتردّد في أذني عند الكربات والحزن ، و عندما أنظر إلى مفتاح العُلب الذي أهداه لي أبي ؛ فتنفرج الكربات ويزول الحزن، لأنّي أشعر أنّ الله يساندني ،

رحم الله أبي ...رحم الله أبي .

النهاية

زياد غزال فريحات

2012/3/1